سلسلة روايات الجيب

بريئة في روسيا

١١١ - أ

باربرا كارتلاند

BARBARA CARTLAND

برينة في روسيا

كانت كارولين عارضة ازياء، لكنها كانت تكره مهنتها هذه. وتكره ايضاً تلك الحفلات غير الصادقة والمرائية، وكذلك تكره تلك العيون الوقحة. إلى أن التقت عيناها بعيني نيكولو سابانيني الذي بدأ يتولى توجيه حياتها وكأنها ملك من ممتلكاته الطائلة. لكن كارولين شعرت بأنه تماماً مثل أي رجل آخر: كل الذي يريده هو أن ينال منها ما يريد. ومع ذلك كله كان يعامل جدته باحترام شديد وعاطفة كبيرة، وأراد أن تكون كارولين رفيقتها. فهل كان ذئباً شرساً أم إنساناً رائعاً مخلصاً؟ وماذا كان عليها أن تفعل عندما اكتشفت أنها واقعة في حبه؟

العنوان الأصلي لهذه الرواية بالانكليزية:

AN INNOCENT IN RUSSIA

Copyright © Cartland Promotions 1981

ISBN 0-553-20126-3

الفصل الأول

عام ١٨٣٦

«السيدة الكبيرة تريد رؤيتك، يا آنسة زيلينا.»

رفعت زيلينا نظرها عن الكتاب، واطلقت تنهيدة خفيفة. فلطالما تكرر الأمر، كلما كانت تغرق في قراءة كتاب مشوّق، كان يتم استدعاؤها للقيام بأمر آخر، وهي على يقين تام انه ما من أمر طلبته منها عمتها الا وكان مملاً.

فهي تشعر انها شخص غير مرغوب بوجوده، منذ ان اتت الى بيت العائلة في ميدان غروسفينر.

وكم كان قاسياً ان تفقد والدها في العام المنصرم وان تترك وحيدة في منزل والديها في غلوسترشاير، مع مربيتها العجوز التي بدأت تفقد سمعها تدريجياً واصبحت غير قادرة على القيام بأي عمل سوى ان تجلس قرب المدفأة وتحيك الصوف.

لكن، وعلى الأقل، كانت زيلينا تقوم بنزهات على الحصان يومياً في الفسحة، أو تتمشى في الانحاء المجاورة، وتقرأ الكتب. وهذا ما كانت تستمتع بفعله اكثر من أي شيء آخر. وكان عزاؤها الوحيد بعد وفاة والدها هو مكتبتها الضخمة.

أما الآن، وبعد انتهاء فترة حدادها، وقد بلغت الثامنة عشرة من عمرها، أرسلت عمتها في طلبها لتعيش معها في لندن. وما ان وصلت لندن حتى أدركت ان سبب ارسال عمتها في طلبها لم يكن لهدف تقديمها إلى المجتمع.

ولطالما ذكر المايجور تايفرتون ان أخته الاصغر منه سناً هي انسانة متعبة وتافهة، رغم كونها جميلة جداً.

وأضاف: «عندها طموح شديد منذ ان كانت في المهد! ولو كان باستطاعتها، لكثفت جهودها في السعي للزواج من ملك. وكما كان ترتب عليها ان ترضى بذلك الممل روثباري، الذي اعتقد انها كانت تسبب له إزعاجاً جديداً دون أي داع!»

ولم تكن زيلينا تهتم كثيراً لأمر عمتها، وذلك مرده إلى عدم رؤيتها اياها منذ ان كانت طفلة صغيرة.

لكن بعد وفاة والدها، أدركت زيلينا ان كون عمتها كاثلين هي أقرب المقربين إليها، فهي الآن بمثابة الوصية عليها.

وقد تبادلت عمتها الرسائل، لكن ليس مع زيلينا، بل مع محاميي المايجور تايفرتون الذين كانوا يتولون تسوية أمور أمواله.

هذا بالاضافة إلى البيت والاملاك. الا ان المحامي نصح زيلينا بألا تبيع بيت والدها، فلربما تحتاجه يوماً ما في المستقبل.

قال مبتسماً: «ليس بالضرورة ان تحتاجي إليه الآن، يا آنسة تايفرتون. إذ انك حتى بعد زواجك، فستشعرين بالارتياح لامتلاك شيء خاص بك.»

كانت تعي تماماً انه كان يجاملها، وسيكون من الحماقة ألا تعترف بأن معظم الرجال معجبون بها.

غير انها قالت في نفسها بتواضع انه لا يمكن لها ان تكون بجمال والدتها، الا انها جميلة وقد اكد لها والدها ذلك في مناسبات عدة.

وكان كذلك يقول: «هناك امر واحد لا استطيع احتماله، وهو امرأة سطحية! لكن لحسن حظي، لي زوجة رائعة وابنة تعكس صورة والدتها.»

بعد وفاة والدتها، وجدت زيلينا ان مواساة والدها أمر صعب جداً، لذلك فقد دفن نفسه بين الكتب، تماماً كما فعلت هي بعد وفاته.

وخلال رحلتها إلى لندن، اخذت تقول في نفسها كم هي قليلة المعرفة بذلك العالم الرحب خارج غلوستر شاير، وتمنت ان يكون هناك مكتبة في بيت عمتها.

وما تمنته كان حقيقة، اذ كان في بيت عمتها مكتبة ضمت احدث الروايات، الا انه لم يكن لزيلينا متسع من الوقت للقراءة.

صرخت بدهشة حين رأتها قائلة: «اوه! ما هذا ياطفلتي! تبدين كالفزاعة! من احضر لك هذا الثوب الذي ترتدين؟»

«لقد... لقد صنعته بنفسي، يا عمتي كاثلين.»

«هذا ما يبدو لي! لن اقدمك إلى اي من اصدقائي قبل ان ترتدي ما يليق بك.»

لقد وجدت زيلينا مظهرها مزرياً قياساً بمظهر عمتها الفائق الاناقة من الصباح الباكر وحتى وقت النوم في الليل.

فهي تحب كل ما هو جميل، الا انه لم يكن في حوزة زيلينا المال الكافي لتنفقه على الخيول والثياب معاً، والخيول بالنسبة إليها تأتي في المرتبة الأولى.

ولدى وصولها إلى ميدان غروسفيز، اصطحبتها عمتها كاتلين إلى شارع بوند، حيث اشترت عدداً كبيراً من الاثواب، تساءلت زيلينا ان كان هناك عدد كاف من المناسبات لارتداء كل تلك الاثواب.

وتعلمت بسرعة ان الليدي الانيقة تبدل ثيابها ثلاث أو اربع مرات يومياً، مما يترتب عليه زينة مناسبة لما ترتديه، للصباح، للغداء، لشرب الشاي بعد الظهر، وبالطبع الثوب والزينة الاكثر إبهاراً للمساء.

الا انها ادركت حاجتها ليس فقط للاثواب بل أيضاً إلى القراء، الشالات، القبعات، الاحذية، المظلات، واشياء أخرى كثيرة.

الامر الذي جعلها تتاكد من حاجتها إلى خزانة أخرى وعدد من الادراج لتستوعب مجموعة الاثواب التي اشترتها لها عمتها.

وقد استغرقها اسبوعاً كاملاً لترتب ثيابها، اما ادوات الزينة وتوابعها فاستغرق ترتيبها وقتاً اطول.

خلال هذا الوقت، لم يكن يسمح لزيلينا ان تظهر في أي مكان يحتمل وجود اي من اصدقاء عمتها فيه، حتى انها كانت تتناول العشاء في غرفة الطعام عندما يكون الإيرل والكونتيسة روثباري وحدهما، الامر الذي لا يحصل الا نادراً.

عندما التقت الايرل، الذي كان متقدماً في السن، والذي كان سميناً جداً، وجدت ان والدها كان محقاً حين نعته بثقيل الظل.

فهو لم يُصغِ يوماً إلى اي شيء قد يقوله اي شخص آخر،

فقد كان يقاطع المتكلم متعمداً ويتحدث بغرور شديد عن أي موضوع يخطر له، بغض النظر ان كان ذلك الموضوع يثير اهتمام المستمعين أو لا.

لاحظت سريعاً ان عمتها لم تأبه يوماً إلى ما يقوله زوجها، ويبدو جلياً انها كانت تعيش حياتها بطريقتها الخاصة ومع لفيف من الاصدقاء، من بينهم العديد من النبلاء والمجاملين.

وكان احدهم يتردد على البيت في ميدان غروسفينر عندما يكون الايرل اما في مجلس اللوردات أو في النادي الخاص به.

مع مرور الوقت، ادركت زيلينا ان شيئاً ما قد حصل عندما دخل إلى قاعة الاستقبال فجأة والتقطه للمرة الأولى.

علقت الكونتيسة بدهشة حين اعلن وصوله: «هاري! لم اكن اتوقع مجيئك.»

«اعلم ذلك، لكنني رأيت جورج يركض لاهثاً في ميدان البرلمان، فعزمت على الحضور!»

ثم وقع نظره على زيلينا، فراح ينظر اليها بفضول مما اضطر الكونتيسة للقول على مضض: «انها ابنة اخي زيلينا تايفرتون، التي ستقيم معنا.»

انحنت زيلينا محيية، وقالت عمتها بعصبية: «هناك الكثير لتقومين به في غرفتك يا زيلينا، فأنا ساكون منشغلة لمدة ساعة أو اكثر.»

«آه، حسناً، عمتي كاتلين.»

وفيما هي تمشي عبر القاعة، كانت على ثقة من ان هاري .لم تعرف اسمه الكامل .كان يراقبها.

بينما هي تغلق الباب سمعته يقول بتعجب: «ان هذه الفتاة رائعة الجمال! لماذا لم أرها هنا من قبل؟»

وللبومين أو الثلاثة الذين تلو، كان هناك فتور ملحوظ في مزاج العمة كاتلين، ولم تبد أي اهتمام حين اعلمتها زيلينا ان معظم الاثواب والحلي التي طلبتها قد وصلت.

ولانها لم تتكلم إلى اي كان غير الخدم الا قليلاً منذ وصولها إلى لندن، أملت ان تصطحبها عمتها إلى احدى الحفلات أو السهرات التي تتردد اليها كل يوم، أو حتى تسمح لها بمرافقتها في نزهاتها التي كانت تقوم بها في العربة في منطقة هايد بارك.

عوضاً عن ذلك، كان هناك صمت رهيب، وبينما زيلينا تنتصب واقفة على قدميها، تساءلت عن السبب الذي يجعل عمتها كاتلين تطلب رؤيتها.

فالوقت لايزال باكراً حتى ترسلها للقيام بعمل ما.

وبما ان الكونتيسة تسهر خارج المنزل كل ليلة، فهي قلما كانت تصحو قبل الساعة الحادية عشرة ظهراً. ولا يسمح لزيلينا بالدخول إلى غرفة نومها الا بعد ان تتناول طعام الفطور وتقرأ رسائلها.

فيما زيلينا تتوجه الآن من غرفة نومها إلى غرفة نوم عمتها، نظرت من بين الدرابزين إلى اعلى السلم حيث ساعة جدها معلقة لتجد ان الساعة لم تتجاوز العاشرة والنصف.

كانت غرفة نوم الكونتيسة تطل على الميدان، أضف إلى انها كبيرة وتثير الاعجاب، يغطي جدرانها ورق حائط صيني، ويتوسط الغرفة سرير كبير يزينه قماش من الموسلين والحرير.

فادركت زيلينا ان ماتراه في غرفة عمتها هو نسخة عن التقليد الذي تراه في فرنسا، اما اللون الاخضر الذي كان يغطي الفراش، فقد كان حسبما تعتقد زيلينا، انعكاس للون عيني عمتها الاخضرين اللتين قد تكونا جذابتين ودافئتين أو ان تكونا باردتين ورافضتين.

وعندما اقتربت من السرير، ساورها احساس غريب ان عيني عمتها في هذه اللحظات هي على الحالة الثانية التي وصفتهما بها.

كان يظهر امام عمتها على السرير العديد من الرسائل، التي كانت تحمل احداها في يدها، والتي نظرت اليها مطولاً قبل ان تقول: «هناك ما يجب ان اخبرك اياه يا زيلينا.»

«صباح الخير، يا عمتي كاتلين! آمل ان تكوني قد نمت جيداً»

فتابعت العمة وكأنها لم تسمع كلمة مما قالته زيلينا: «ما اريد اخبارك اياه هو انني قد قررت بشأن مستقبلك القريب، واعتقد انك فتاة محظوظة جداً.»

«قررت... بشأن مستقبلي، يا عمتي كاتلين؟»

«هذا ما قلته بالضبط. وليس هناك من ضرورة لتكرري ما قلته! ستذهبين إلى روسيا.»

ظنت زيلينا لبضع لحظات انها اخطأت فيما سمعته. ومن ثم، ولشدة دهشتها، تمتمت: «هل قلت... روسيا؟»

«أجل، روسيا! كما سبق وقلت، إنك محظوظة جداً، فهذه تجربة تجعل معظم الفتيات يسعدن لمجرد عرض الفكرة عليهن.»

«لـ... لكن... لماذا روسيا، يا عمتي كاتلين؟ وماذا عساي أن افعل... هناك؟»

«هذا ما سأقوله لك الآن.» وتابعت حديثها بطريقة وكأن زيلينا حمقاء: «رغم كل شيء، ان إحدى قريباتك التي سميت على اسمها هي روسية.»

«ولكنها ماتت... ولا يمكنني... حتى ان اتذكرها.»

«هذا غير مهم، لكنه يربطك بطريقة ما مع روسيا ويجعلك تحبين البلد.»

«سأذهب... بمفردي؟»

«حسناً، بالتأكيد لن ارافقك، ان كان ذلك ما تقصدينه. دعيني اوضح لك الأمر، يا زيلينا. انا لا انوي ان استبقيك معي خلال عطلتي في لندن. فانت بالطبع لا تناسبين اصدقائي أو نمط الحياة التي اعيشها كزوجة عمك.»

ان زيلينا تتمتع بقدر واف من الذكاء يجعلها تفهم ان معنى ما تقوله عمتها هو انها لا ترغب بوجد فتاة إلى جانبها، تكون بمثابة منافسة لها بطريقة أو بأخرى.

كانت تعي تماماً انها ستكون غير مناسبة ابداً لهؤلاء الاصدقاء الظرفاء والمنافقين الذين تتمتع عمتها برفقتهم.

في نفس الوقت، لم يخطر لها قط، بعد مجيئها إلى لندن وبعد ان منحت الكثير الكثير من الثياب، ان ترسل بعيداً عن لندن.

كانت الكونتيسة لا تزال تقرأ الرسالة بإمعان حين قالت: «لقد كنت افكر بك حين اخبرت زوجة السفير الروسي ان احدى قريباتك الروسية الاصل قد توفيت، فقد كان بامكانك الذهاب للعيش معها.»

«لربما لم تكن... ترغب بوجودي معها.»

«انا متأكدة تماماً من انها كانت ستسر جداً لوجودك معها، وهذا ما اخبرته للسفيرة، وقد وافقتني الرأي انه سيكون من المؤسف ان اضعت فرصة زيارتك لروسيا، لهذا فقد رتبت الامر.»

سألت بقلق: «رتبت... ماذا؟»

«ان تذهبي إلى روسيا وتحلي ضيفة على الامير والاميرة فولكونسكي اللذين سيرحبان بك كفرد من افراد عائلتهم.»

«ماذا ستكون صفتي في المنزل، يا عمتي كاتلين؟ هل انا ضيفة، ام انني سأقوم... بعمل... ما؟»

وأدركت ان الكونتيسة تشعر بالحرج من الطريقة التي كانت تنظر بها إليها.

«لا يمكنك ان تتوقعي الاقامة لفترة زمنية في اي منزل دون ان تشاركي في النفقات التي تتوجب عليك.»

انحسبت انفاس زيلينا، ثم سألت: «ما الذي... سأقوم به، يا عمتي كاتلين؟»

«للاميرة اطفال من مختلف الاعمار...»

فقالت مقاطعة: «ما تعنيه هو انني سأقوم بدور مربيتهم.»

وضعت الكونتيسة الرسالة من يدها، وقالت: «زيلينا، لا تروق لي الطريقة التي تتحدثين بها معي. انا احاول ان اجد ما هو الافضل لك، وستسرين بالطبع لان رحلتك هذه ستضيف إلى خبرتك ومعرفتك الضئيلة جداً بالعالم حتى سنك هذه.»

«لقد كان والدي يعتبرني انضج... من كثير من الفتيات... اللواتي في مثل سني.»

«انا ووالدك لنا وجهتا نظر مختلفتان. فانا اراقبك منذ وصولك إلى هنا، واعتبرك تجهلين تماماً الامور التي تهم الفتيات امثالك.»

«الا انك لازلت تظنين انني قادرة على... تربية الاطفال!»

«انا لم اقل انه عليك تربيتهم! لكن بسبب جهلك هذا، ساخبرك بأن العائلات الارستقراطية في روسيا توظف عدداً من المربيات الاجنبيات لاولادهم.» توقفت ثم تابعت ببطء: «لقد اخبرتني السفيرة ان لاولاد الامبراطور حاضنة اسكوتلندية مضى على وجودها معهم تسعة عشر سنة، اضافة إلى عدد كبير من المربيات والمعلمات من جنسيات مختلفة. اضافة إلى ان اللغتين الانكليزية والفرنسية هما اللغتان اللتان يتم التداول بهما في القصور الملكية.»

«إذاً، ساعلمهم... الانكليزية!»

«بل ستتكلمين الانكليزية! فانت انكليزية والسفيرة على ثقة من انك ستجدين روسيا رائعة.»

«كم... من الوقت... ساقيم هناك؟»

لقد شعرت زيلينا بخوف متزايد في داخلها مرده إلى انه يتم ابعادها عن كل ما هو مالوف لها، وانها لن تتمكن من العودة ابداً.

هزت الكونتيسة كتفيها وقالت: «ولماذا نحدد زيارتك بوقت معين؟»

عم الصمت للحظات ثم قالت زيلينا: «أنا آسفة، يا عمتي كاثلين... لكن، رغم انها فرصة لرؤية العالم كما تقولين،

الا انني افضل... البقاء في انكلترا. ان كنت تجدينني عبئاً... اعتقد بما انني املك قليلاً من المال... ويمكنني ان اعيش مع احد الاقارب إلى ان افكر بما هو... افضل لاقوم... به.»

«وماذا قد يكون ذلك؟»

رفعت زيلينا ذقنها وقالت: «ان كان علي ان اعمل، يا عمتي كاثلين، فانا افضل ان اعمل في انكلترا.»

علقت بحدة: «ليقول الناس انني لا احسن الاهتمام بشؤونك؟ يبدو لي انك نسيت، يا زيلينا، انني، وبعد وفاة والدك، اصبحت الوصية عليك. اذاً، بما انني قررت انك ستذهبين إلى روسيا، هذا ما سيكون!»

كانت زيلينا على وشك ان تعترض بحدة، لكنها عادت وتذكرت انها ستظل تحت وصاية عمتها إلى ان تتزوج، وانها مع هذه الصلاحيات لعمتها، مضطرة لتنفيذ اي أمر تطلبه منها كاثلين.

وكأن الكونتيسة أدركت ما تفكر به زيلينا، فقالت لها: «توقفي عن مثل هذه التصرفات. لقد فعلت كل ما بوسعي وجهزتك بافضل وأغلى الثياب، وستشكريني ليس باحتجاجك ورفضك بل بذهابك إلى روسيا كما طلبت منك.»

«هل كان هذا... يدور في رأسك، حين اشتريت لي هذه الثياب، والتي اشكرك عليها كثيراً؟»

ولم يكن على عمتها ان تجيب، اذ ان الملامح المرتسمة على وجهها كانت تقول ان هذا الامر مدبر.

وبعد لحظات من الصمت سألت زيلينا: «متى يجب... علي الرحيل؟»

«السفارة الروسية ستقوم بترتيب امور سفرك. اعتقد انك

ستسافرين على متن باخرة بريطانية إلى ستوكهولم، ومن ثم تنتقلين إلى طائرة روسية تقلك إلى سانت بطرسبورغ.»

لم تعلّق زيلينا على ما سمعت، فقالت الكونتيسة بعد لحظات: «آه، لا تعبسي هكذا! عليك ان تشكريني على ما فعلته من اجلك، وما يجب ان تتحلي به هو روح المغامرة! من يدري؟ قد تتحول هذه الزيارة إلى فرصة عمرك.»

لم تجب زيلينا، بل تركت الغرفة، وما ان وصلت إلى عتبة غرفتها، حتى جثت على ركبتيها وكانها لم تعد قادرة على السير، وغطت وجهها بكفيها.

والسبب ليس انها لا تتمتع بروح المغامرة، اذ لطالما تحدثت هي ووالدها عن رغبتهما في رحلة لاستكشاف فرنسا، أو لزيارة الجزر اليونانية، وربما، ان كان ذلك ممكناً، زيارة بعض الاماكن في افريقيا، هذا ان كان باستطاعتهما تغطية تكاليف هذا المشروع.

لكن ان تذهب إلى روسيا لوحدها، وتصبح منقطعة عن كل ما قد اصبح جزءاً من حياتها حتى الآن، جعلها هذا الأمر، تشعر بالخوف والخجل.

فهي لم تشعر يوماً برغبة في زيارة روسيا، رغم متانة العلاقة التي كانت تربط بين والدتها واحدى قريباتها.

ولطالما تعجّب الناس لغرابة اسم زيلينا عندما يتعرفون اليها، لعله، حسبما ترى الأمور الآن، الذي جعلها تشعر ان روسيا هي مكان لا ترغب برؤيته أو ان تعرف عنه شيئاً، وما تعلمه سلفاً لم يبد مطمئناً.

فقد قرأت عن كاثرين الشهيرة والسلسلة الطويلة من

مغامراتها، وعن اعمال العنف الفظيعة التي قام بها ابنها القيصر بولس.

لذلك لم ترغب في معرفة المزيد عن ناس يعيشون ظاهرياً برفاهية وترف، ويسمحون لان يكون الناس البسطاء عرضة للحرمان الشديد.

فقالت في نفسها باشمئزاز: «روسيا!»

شعرت بالاضطراب يعتريها لفكرة انها ستبتعد عن انكلترا، البلد الذي تحب، والذي عاشت فيه منذ ان ولدت وحتى الآن.

وقد كان لها ولوالدها اصدقاء كثر حيث كانا يعيشان، ليس فقط من مستواهم الاجتماعي، بل أيضاً من الطبقة الأدنى، منهم العاملون في املاكهم باستمرار، كذلك هنالك المتقاعدون الذين كانوا يعرفون والدها منذ ان كان صبياً صغيراً ووالده من قبله.

وبعد وفاة والدها، كان من الصعب عليها ان تتركهم جميعاً وتذهب إلى لندن. وفي نفس الوقت، كانت تتمنى ان تتعرف إلى اصدقاء جدد، تتحدث اليهم كما كانت تتحدث إلى والدها، كذلك تمنت لو تتعرف بفتيات يماثلنها سناً قد يشاركنها بعضاً من اهتماماتها.

ثم عادت وقالت في نفسها باشمئزاز: لكن روسيا!

فإذا بصدى هذه الكلمات يتردد في المكان لدرجة انها شعرت وكانها تواجه رياح سيبيريا الجليدية القاسية.

فنزعت يديها عن وجهها ووقفت. ثم قالت بصوت عالٍ: «لن أذهب. سأهرب!»

غير انها تذكرت ان عمتها تنوي التخلص منها على أي

حال، وانه سيكون أمر مهين جداً ان تم ارجاعها إلى عمتها في حال فشلت عملية هروبها.

لم تكن الكونتيسة تافهة كما كان والدها يقول لها، وبما ان زيلينا عاشت معها حوالي ثلاثة اسابيع، فقد أدركت ان الكونتيسة لها طريقة خاصة بها تحصل بواسطتها على ما تريد. لدرجة ان الايرل قد يكون صاحب سلطة ونفوذ في مجلس الأعيان، الا انه في منزله في ميدان غروسفينر يقوم بما تطلبه منه زوجته.

قد تكون معرفته بها بدافع تحاشي المشاكل، لكنه كان أيضاً، وحسبما تعتقد زيلينا، فخوراً جداً بجمال زوجته ومكانتها المرموقة في المجتمع الانكليزي.

فهي بالنسبة له كالوسام يعلقه الايرل على سترته كي يثير غيرة الناس حوله.

لذلك فقد استنتجت انها ان طلبت من الايرل المساعدة، انه سيطلب منها تنفيذ رغبة عمتها، ولم يخطر لها حتى هذه اللحظة اي شخص يمكنها أن تلجأ إليه ليساعدها.

الأمر الوحيد الذي يريحها هو الرصيد المالي والذي حصلت عليه إثر بيع بيت والدها ومحتوياته.

وقالت في نفسها مطمئنة اياها: على الأقل ساتمكن من العودة إلى انكلترا ان خطر لي ذلك.

وحرصت على ان يكون بحوزتها ما يضمن عودتها.

• • •

بما ان الكونتيسة قد نفذت ما تريد، فقد بدت تصرفاتها اكثر ليناً لايام قليلة تلت. الا انها لم تصطحب زيلينا إلى أي

مكان تذهب إليه أو تدعوها لتناول العشاء معها ان اقامت حفل عشاء.

كل ما فعلته الكونتيسة مع ابنة اخيها هو اصطحابها لتناول الشاي مع السفيرة، والذي يعني كما ادركت زيلينا، انها كانت تمتحن للوظيفة التي ستشغرها في منزل الاميرة، التي كانت تتشاور مع الكونتيسة دون ان تحول نظرها عن زيلينا مفكرة في الانطباع الذي ستتركه عند من سيراها في سانت بطرسبورغ.

وعندما حان وقت الانصراف قالت لزيلينا: «استمتعي بوقتك. فالانسان الروسي يصعب فهمه، الا ان المشكلة هذه بالتحديد هي التي تجعل التعامل معه من امتع ما يكون، رغم غموضه الشديد!»

ابتسمت زيلينا، رغم عدم اقتناعها بما سمعت وحين توجهت الكونتيسة نحو الباب، اضافت السفيرة: «احتفظي بمفكرة خاصة بك، لانك ستجدين انه من الممتع العودة إلى الماضي وقراءة محتوياتها لاحفادك، حين يصبح لديك احفاداً.»

ليكون هذا الكلام الذي سمعته من السفيرة باعثاً على الاطمئنان ومخففاً من الخوف الذي يساورها حين تفكر بالمستقبل.

على الرغم من ذلك، فإنها حين جاء يوم الرحيل، شعرت زيلينا وكانها مرسلة إلى المنفى وانها لن ترى انكلترا ثانية.

اما الكونتيسة فقد اوصلت ابنة أخيها إلى تيلبوري، حيث ستنقل بواسطة باخرة انكليزية إلى ستوكهولم، وفي داخلها شعور عارم بالانتصار.

كانت زيلينا على يقين من ان عمتها ما كانت لتفعل ذلك لولا علمها بأن السفير الروسي سيرسل مندوباً رسمياً ليتأكد من ان كل شيء يسير على مايرام.

قالت الكونتيسة متذمرة: «هذا الأمر يزعجني كثيراً.»

«انا آسفة، يا عمتي كاتلين، لكنك لن تريني لفترة طويلة جداً.» وتوقعت زيلينا ان ترى ملامح الغبطة على وجه الكونتيسة لدى سماعها كلمات ابنة اخيها هذه، الا انها قالت دون أي انفعالات ظاهرة: «لقد اعطى السفير تعليمات لاحدهم كي يرافقك بعد انتقالك إلى الطائرة الروسية التي ستقلك من ستوكهولم.»

وبما ان الكونتيسة لا تحب السفر، لم تتبادل من الحديث مع زيلينا الا قليلاً حتى وصولهما إلى تيلبوري، حيث اكتشفت زيلينا انها ستسافر على متن سفينة بخارية.

في السنوات القليلة الأخيرة، كانت السفن التجارية تستخدم لعبور البحر الشمالي، البحر الايرلندي، ومضيق دوفر، بعد ان كانت قد استخدمت فقط في نقل الركاب من الشاطىء إلى منتجعات الاصطياف.

وبالنسبة للسفينة التي ستنقل زيلينا إلى ستوكهولم فقد كانت بخارية كما قيل لها، اضافة إلى اشرعة مساعدة لتزيد السرعة.

بعد ان اصبحت على متن السفينة، طلبت الكونتيسة لائحة باسماء المسافرين، وقرأتها مرتسماً على وجهها تعابير من لا يرغب بإيجاد من يعرفه بين مجموعة من البلهاء.

ثم اطلقت صرخة فرح خفيفة، ودون ذكر اي شيء لزيلينا، التي كانت ترافقها على مضض، توجهت إلى غرفة

ضابط السفينة وسألته: «هل صعد اللورد تشارنوك على متن السفينة؟»

«لا، يا سيدتي. الا ان سيادته سيصل بين لحظة وأخرى.»

فوقفت الكونتيسة وابتسامة واهية ارتسمت على وجهها بانتظار اللورد، مراقبة درج السفينة.

وما ان مرت دقيقتان حتى ظهر رجل طويل ووسيم يرتدي سترة يزين اطرافها قطع من الفرو، ويتبعه مرافق يحمل عدداً من الحقائب يظهر في وسط كل منها شعار النبالة الملكية.

توجهت الكونتيسة نحوه مبتسمة بطريقة كانت تبرزها لهؤلاء الذين تتمنى ان تكسب ودهم فقط.

ثم قالت: «سيدي اللورد! يا للمفاجأة السارة!» الا ان زيلينا، التي كانت تراقب الموقف، ادركت ان الأمر كان مختلفاً بالنسبة إلى اللورد.

وقالت في نفسها انه اكثر الرجال الذين التقتهم وسامة، لكنه في نفس الوقت اكثرهم غرابة، أو لربما بتعبير أدق قاس.

فقد كان شكله يوحي بالغرابة والبرود، لدرجة ان الناظر اليه يشعر وكأنه ما من دم يجري في عروقه.

ولم تستطع تفسير السبب الذي ادى بها إلى تصور ذلك، لكنها كانت معتادة على تكوين رأي عن الاشخاص منذ لقاءها بهم لأول مرة. وكم كان والدها يضحك مما اسماه «سوداوية» لاشخاص تعرفت اليهم للتو، أو التقتهم صدفة في حقل الصيد.

ثم قالت في نفسها: ان اللورد تشارنوك هو شخص رهيب، وهو متأكد تماماً من تأثيره على الآخرين. وسمعته يسأل عمتها بنبرة جافة: «هل انت مسافرة على متن هذه السفينة؟»

«بالطبع لا. انا هنا لأودع ابنة اخي، والتي هي في طريقها إلى سانت بطرسبورغ، وبما انها مسافرة لوحدها، سيكون لطف من سيادتك لو اهتممت بها لحين وصولها.»

وادركت زيلينا من التعابير التي ارتسمت على وجهه عدم رغبته في القيام بذلك، ولا ينوي القبول بتحمل مسؤولية من هذا القبيل.

«اخشى أنني...»

إلا ان الكونتيسة قالت مقاطعة: «هذا لطف منك. وانا ممتنة لك جداً.»

واوشك ان يعلّق على ما قالته، لكنه قبل ان يفعل ذلك، نظرت إلى زيلينا وقالت: «علىّ ان اذهب، يا عزيزتي.. انتبهي إلى نفسك. وتمتعي بزيارتك، وانا واثقة من انك ستجدينها ممتعة جداً.»

قبل ان تعلق زيلينا على ما سمعته، قبلتها عمتها على خدها، وتوجهت نحو المعبر مسرعة.

ولدى وصولها إلى رصيف الميناء، اكتشفت زيلينا ان اللورد قد اختفى، فابتسمت في نفسها ولم تلمه على ذلك.

لقد كان متوقعاً من عمتها ان تحاول توريط اللورد في الاهتمام بها لكونه الشخص الوحيد المهم على لائحة المسافرين.

لكنها لم تكن تعلم ان الكونتيسة كانت ترد ضربة قديمة تلقتها من رجل تكرهه.

وبينما كان اللورد في مقصورته المريحة جداً، قرر في نفسه ان ابنة اخ كونتيسة روثباري يمكنها الاهتمام بنفسها.

فهو يعي تماماً حقيقة ما كانت كاثلين روثباري تفعله، اذ انها وقبل عامين حاولت ان تلفت انتباهه، وان كان ممكناً، ان تأسر قلبه، لان ذلك سيزيدها فخراً.

ولانها الاجمل في مجتمعهم، اعتبرت الكونتيسة رفضه اهانة كبيرة لها.

لذلك أذهلتها تلك التجربة، عندما اوضح اللورد تشارنوك بشدة، انها لا تروق له.

وبالرغم من بحث الكونتيسة عن سبب يفسر رفضه ذاك، الا انها عجزت عن ايجاده.

ما لم تكن تعرفه كاثلين هو ان اللورد اعتبر تصرفها شديد القسوة مع فتى وظفته في وزارة الخارجية لبضعة أشهر ثم طردته لأنها وجدت شخصاً آخر لديه خبرة في العمل أكثر منه.

والفتى موضوع الحديث هو اكبر من صبي بقليل، وبما انه يعتقد انه مسحوق الفؤاد، فقد طلب نقله إلى ماوراء البحار، رغم انه، وحسب رأي اللورد، سيكون وجوده في لندن مفيد اكثر وخصوصاً بالنسبة له شخصياً.

لذلك كره اللورد كاثلين منذ تلك اللحظة، واصبح يحتقر كل النساء الجميلات التافهات اللواتي لا يفعلن شيئاً سوى انهن يلعبن بالنار، أو بالاحرى بالقلب، والعواقب الوخيمة التي يحرقون.

ان حقيقة رفض اللورد تشيرنوك الاستجابة لها وتجاهله

اياها عمداً، لم يؤثر في كاتلين روثباري سوى انه جعلها اكثر حذقاً.

وعندما اجبرت على الاعتراف بهزيمتها، قالت في نفسها انها، آجلاً ام عاجلاً، ستتمكن من رد الصفعة للورد تشارنوك وتلقنه درساً لن ينساه.

فمن وجهة نظرها، لم تكن تعتقد ان هناك ما هو أزعج من مرافقة فتاة صغيرة لرحلة طويلة، وخلال عودتها إلى لندن، املت ان يزعجه ذلك ويثير حنقه. وفي نفس الوقت يشعر انه لا يمكنه التخلص من امر فرض عليه.

غير ان اللورد لم يكن في وارد ان يعتبر اي شيء آخر سوى راحته. فلديه الكثير من الاعمال ليقوم بها، الا ان اضطراره لزيارة روسيا في هذا الوقت بالذات كان يزعجه.

ولم يوافق على هذه الزيارة الا بعد ان توسله وزير الخارجية ليتولى القيام بمهمة صعبة ودقيقة.

قال اللورد بالمرستون: «لا يمكنني ان اوكل هذه المهمة لاحد غيرك. فانت تدرك طبيعة الروس. فمخبريهم ينتشرون في كل مكان. وكل ما تقوله أو حتى تفكر به يتم تبليغه إلى رئيس الشرطة. واكثر من ذلك، لقد اعلمت ان شرطة القيصر السرية تحكم السيطرة الآن، اضافة إلى افتقار القيصر نفسه للعقلانية.»

فقال اللورد تشارنوك: «لقد سمعت ذلك. ولا أحد يعلم ما سيحصل تدريجياً في ذلك البلد.»

فتنهد وزير الخارجية وقال: «لقد سئمه الجيش. فهو يثور بجنون لاتفه الاسباب، ويصبح عنيفاً لئيماً، وحقوداً.»

هز اللورد تشارنوك رأسه وقال: «لقد سمعت ذلك أيضاً. لكنني ارجو ان يكون في ذلك شيء من المبالغة.»

«اخشى ان ذلك غير مبالغ فيه. فقد حول امبراطوريته الواسعة إلى ثكنات عسكرية، وبالنسبة له، السيادة هي امتداد لانضباط الجيش.»

تنهد اللورد تشارنوك وقال: «لقد اعلمت انه كتب في احد تقاريره: لا يمكنني السماح لاحد بأن يجرؤ ولا يلبي طلباتي في اللحظة التي يعلم بها.»

هز اللورد بالمرستون رأسه وقال: «هذا صحيح. لكن رغباته، ولسوء الحظ، غريبة الأطوار، هذا اقل ما يمكن قوله. فلقد فرض لبس البزة الرسمية على الطلاب، واساتذة الجامعة، والمهندسين، واعضاء الخدمة المدنية.»

«يبدو لي هذا غريباً!»

«ويحق للعسكريين في الجيش فقط ان يطلقوا شواربهم، شرط ان تكون سوداء، وان لزم الامر، فعليهم صباغها!»

ضحك الاثنان، ثم قال اللورد تشارنوك: «ان القيصر بلا شك هو من اخطر الفعاليات في اوروبا، وكما سبق وذكرت لك، لا انوي الذهاب إلى سانت بطرسبورغ.»

«ما من أحد سواك يقاوم تأثيره على الآخرين.»

تنهد اللورد تشارنوك ثانية وتابع: «حسناً، لكنني سأختصر وقت هذه الزيارة قدر المستطاع.»

«يمكنك العودة ما ان تنجح مهمتك.»

فعلق اللورد تشارنوك باستهزاء: «شكراً لك!» مدركاً عبء المهمة الموكلة إليه.

فإذا به الآن يطلب ان توضع الحقائب في مكان يكون على

مرأى من نظره، رغم كونها مشغرة، لكنه في نفس الوقت، كان يعي تماماً ان الروس خبراء في فك رموز الشيفرة، كذلك في تفتيش كل ما هو بحوزة الزائر حتى لو كان يتمتع بحصانة دبلوماسية.

وبما انه قد سافر كثيراً، فقد عمل على التأكد من ان مرافقيه يعملون على المحافظة على راحته.

كذلك، فقد طلب مساعده الخاص، والذي مضى على عمله مع اللورد خمسة عشر عاماً، إلى العاملين على متن السفينة لدرجة ان كل ما يخص اللورد قد انجز في وقت وجيز جداً اثار غيرة المسافرين.

بعد ان بدأت السفينة رحلتها، فتح اللورد تشارنوك احدى حقائبه وبدأ يعمل على ما تحتويه.

ولم يفكر ولو للحظة واحدة في المسؤولية التي القتها كونتيسة روثباري على عاتقه والتي هي الاهتمام بابنة اخيها.

الفصل الثاني

شعرت زيلينا بالخجل حين كان عليها التوجه إلى قاعة الطعام لتناول العشاء.

ورغم كل شيء، دخلت قاعة الطعام وذكرت اسمها للمضيف الذي لم يجلسها إلى الطاولة الكبيرة في وسط القاعة، التي كانت تعج بالناس بل رافقها إلى احدى الطاولات المفردة التي تم ترتيبها في انحاء القاعة. فأدركت ان هذا قد تم تدبيره بواسطة السفارة الروسية، مما جعلها تشعر بالامتنان لان ذلك سيعفيها من الاضطرار إلى الكلام مع الغرباء، الذين بدا بعضهم لها فظ وفوضوي ما ان بدأوا بتناول الطعام.

لم تكن قد اكلت من طعامها الكثير حين رأت اللورد تشارنوك يدخل القاعة ينظر، وكما ظنت هي، بازدراء إلى كل الموجودين.

وقد تمت مرافقته إلى احدى الطاولات المفردة في الجانب الآخر من القاعة، فجلس في مختلى صغير، وبالتالي أصبح معزولاً عن باقي المسافرين.

لاحظت زيلينا انه كان يطلب طعامه بدقة، وبعد انتهائه من طلب الطعام، أخذ يقرأ في كتاب كان قد احضره معه.

فقالت في نفسها ان هذا افضل ما يمكن فعله وتمنت لو انها احضرت كتاباً هي نفسها.

وبما انها كانت تجلس وحيدة، فقد كان من الصعب عليها

www.liilas.com

الا تتأمل الاشخاص الآخرين في القاعة، رغم ان اللورد قد اعطاها فكرة عما بإمكانها فعله في حال كانت وحيدة.

لقد كان الطعام يقدم على دفعات ولم يكن يقدم بالسرعة المطلوبة لأن عدد المضيفين لا يكفي لتلبية طلبات كل الموجودين.

كان يجلس مواجهاً لها في الطاولة المقابلة رجل أخذ ينظر إليها، بطريقة، وقحة.

فتمنت لو انها تستطيع الانصراف، الا انها فكرت بانها قد تلفت الانظار اليها ان تركت طاولتها قبل انتهاء الجميع من تناول الطعام.

وكم كانت ممتنة حين وضع آخر جزء من الوجبة على طاولتها، ولدى سؤال المضيف لها ان كانت ترغب بالمزيد عندما أنهت طعامها، قالت له: «لا، شكراً لك.»

ثم قامت ومشت عبر الطاولات، إلى مقصورتها في الطابق العلوي، المكان الذي وجدته مريحاً جداً، وقد كانت مسرورة لانها احضرت معها كتاباً لتقرأه. وتمنت لو انها احضرت المزيد من الكتب، الا ان خادمة عمتها التي ساعدتها في توضيب حقائبها، اصرت على ان تملأ لها تلك الحقائب بالثياب.

قالت الخادمة: «لا يمكنك ان تقرري ما تحتاجين اليه بالضبط، فحسبما اسمع، الطقس مثلج دائماً في روسيا.»

فردت زيلينا مبتسمة: «لا اعتقد ان الطقس كذلك في مثل هذا الوقت من السنة.»

«لا يمكنك الجزم في هذا الموضوع.»

يبدو واضحاً ان الخادمة تعتبر روسيا مكاناً نائياً في

اقاصي الارض، وكانت زيلينا مضطرة للموافقة معها.

ثم قالت في نفسها انه عليها معرفة بعض ما يتعلق بتاريخ روسيا ان كانت زيارتها لهذا البلد لا مفر منها، وستساعدها قراءتها لذلك على التقدير والاعجاب بكل الكنوز والثروات التي علمت بوجودها هناك من كتب قد سبق وقرأتها.

غير انها ومهما حاولت ان تثير حماس نفسها لما يخبئه لها الزمن من مفاجآت، الا انها لاتزال قلقة وخائفة.

زادت قوة الرياح خلال الليل، وما ان سطعت شمس النهار حتى تحولت حركة السفينة إلى ترنح قوي. ولحسن الحظ، أن زيلينا بحارة ماهرة، لذلك، وبما انها قد شعرت بالحر في مقصورتها، فقد وضعت سترتها على اكتافها وصعدت إلى متن السفينة، حيث لم يكن هناك العديد من الاشخاص، فادركت انه من الخطر ان تتقدم اكثر، فوقفت في مكانها تتأمل الزبد الابيض الذي كان يعلو الامواج.

كان منظر البحر رائعاً، ولم تكن زيلينا تشعر بالخوف، باستثناء قلق بسيط من ان يبللها رذاذ الماء الذي يصدر عن ارتطام الموج بجوانب السفينة.

ظلت زيلينا واقفة في مكانها لوقت طويل، وفيما هي تستدير لتدخل عبر الباب الذي كانت تقف وراءه، اصطدم نظرها بالرجل الذي كان يحدق بها خلال تناولها العشاء.

فقال: «صباح الخير، سيدتي الجميلة! يبدو لي انك بحارة ماهرة.»

«صباح الخير.» ثم حاولت ان تتجاوزه، الا انه اعترض سبيلها وقال: «لقد بحثت عنك مساء أمس بعد تناول العشاء، لكنك اختفيت.»

وتساءلت زيلينا فيما عليها ان تقول له بتهذيب دون ان تكون ودودة معه. ففكرت ان تقول له انهما لم يتعارفا بعد الا انها تذكرت ان والدها ما كان ليعتبر من هم مثل هذا الرجل من النبلاء، وانه لا يجدر بها ان تشجعه على التعرف اليها.

اضافة إلى انها تذكرت بأنه كان ينظر اليها بطريقة لم تجعلها تشعر بالارتياح الليلة الماضية، فحاولت مجدداً ان تتجاوزه وهي تقول: «عذراً. ارغب في الذهاب إلى مقصورتي.»

«ولم العجلة؟ دعينا نجلس في مكان ما واخبريني قليلاً عن نفسك.»

«انا... اخشى انه ليس لدي الوقت فأنا... منشغلة جداً.»

وكان ليعترضها ثانية لولا انها تسللت خلف احد المسافرين الذي مر عبر الباب.

عندما وصلت إلى مقصورتها، اكتشفت ان قلبها ينبض بسرعة. فقالت في نفسها انه لا يجب عليها ان تشعر بالانزعاج مما جرى.

واستغربت عدم ارسال عمتها كاتلين خادمة ترافقها اذ ان والداها لم يكونا ليسمحا لها بالسفر وحيدة ابداً.

لكن العمة كاتلين قالت ان السفارة الروسية قد قامت بكل التدابير اللازمة للرحلة برمتها، فتخيلت زيلينا انهم قد يختارون لها وصيفة ترافقها.

وافترضت انه كونها لاتزال على متن سفينة انكليزية، فإن هذا يعني انها لم تصبح تحت وصايتهم بعد، وأن عليها الانتظار حتى تصل إلى ستوكهولم حيث يتولى الروس أمرها.

واقلقتها فكرة ان يكون عليها تحاشي لقاء ذلك الرجل طوال فترة الرحلة. لكنها طمأنت نفسها قائلة انها قد اصبحت فتاة ناضجة وانه لن يتمكن من ايذائها، وبما انها ستستقل بذاتها، فإنه يتوجب عليها ان تتعلم كيف تتعامل مع الناس دون الاتكال على والدها كما كانت تفعل في السابق.

الا انها شعرت بالضياع والضعف، ولم تتمكن من تجاهل هذا الامر سوى بقراءة الكتاب الذي احضرته معها وقررت ان تركز في محتوياته.

عندما حان وقت الغداء، لم يتوجه معظم المسافرين إلى قاعة الطعام بسبب ترنح السفينة لسوء حال الطقس، ومن هؤلاء الاشخاص، ذلك الرجل ذو الشارب والذي سر زيلينا غيابه. وتذكرت هذه المرة ان تأخذ الكتاب معها، ولاحظت ان اللورد تشارنوك في مكانه يقرأ ويأكل.

وبما ان عيني اللورد كانتا مثبتتان على الكتاب، فقد تمنى لزيلينا ان تراقبه لفترة قصيرة وتقول في نفسها مجدداً كم يبدو قاسياً وبارد المشاعر.

وخطر لها، بما ان اللورد يأخذ العديد من الحقائب الرسمية معه في هذه الرحلة إلى روسيا، خطر لها انه في مهمة دبلوماسية وتمنت لو انها تستطيع التحدث اليه والاستفسار عن طبيعة عمله وعن روسيا.

ثم قالت في نفسها: لو كان والدي معي، لكان الامر سهلاً. فأنا ارغب في سماع المزيد عن الوضع السياسي في البلد.

لقد ترافق تفكيرها به نظرها اليه، وكأنه شعر فجأة بذلك، رفع نظره عن الكتاب ونظر اليها مباشرة.

فحولت نظرها عنه بسرعة، الا ان حركة رأسها لفتت

نظره، ورغم انها لم تكن تعي ذلك، الا ان انعكاس الضوء المتسلل إلى القاعة من اضواء الميناء اضفى وهجاً على المكان حين تلألأ على شعرها الجميل.

فقال اللورد تشارنوك في قرارة نفسه انها تبدو جميلة وجذابة، وتساءل عن السبب الذي يجعل امرأة شابة مثلها تسافر وحيدة.

لقد كانت فكرة عابرة، لكنه لم يكد يبدأ معاودة القراءة حتى تذكر فجاة ان الفتاة التي يفكر بها هي ابنة أخ الكونتيسة، ولم يكن قد وقع نظره عليها بعد حين طلبت منه الكونتيسة الاهتمام بها خلال الرحلة، وذلك لانزعاجه من ذلك الطلب.

فاجاه مجدداً سفر فتاة مثلها وحيدة، وتساءل عن سبب زيارتها لروسيا.

ثم قال في نفسه ان هذا ليس من شانه، وانه لا ينوي الحديث اليها ان كانت تشبه عمتها في شيء. ولاحظ انها سرعان ما أخذت كتابها وانصرفت بعد انتهائها من تناول الطعام فقال في نفسه: على الأقل، انها بحارة ماهرة!

امضى اللورد طيلة فترة بعد الظهر يعمل، ثم ولصعوبة المشي على متن السفينة بسبب العاصفة القوية التي تضرب البحر، امضى بعض الوقت مع ربان السفينة على المنصة، الأمر الذي سمح له القيام به استثنائياً للمنصب الذي يشغره ولحقيقة انه ممن يهتمون بالسفن. كذلك لانه كان يفكر في شراء يخت خاص به. ومع حلول المساء، هدأ حال البحر قليلاً، وتحركت السفينة بسرعة باتجاه الشاطىء الدنماركي.

بعد ان بدل اللورد ملابسه وارتدى ملابس المساء، الامر الذي يقوم به سواء أكان في البيت او في قصر باكينغهام، توجه إلى قاعة الطعام وفي ذهنه انه سيقدم له الوجبة ذاتها التي طلبها أمس.

كان لايزال هناك عدد قليل من الاشخاص كما كان الحال عند الغداء، لكن عندما دخلت زيلينا إلى القاعة قبل خمس دقائق من الموعد المحدد، علا وجهها تعابير الانزعاج لرؤيتها الرجل ذو الشارب يجلس في نفس المكان حيث جلس في الليلة الماضية، ومعه بعض اصدقائه من الرجال، ومن الواضح انهم لم يتأثروا بحركة السفينة التي تسبب الغثيان.

وبينما كانت زيلينا تتناول الطعام، اقترب مضيف منها وقال: «يسأل السيد آدمسون، يا آنستي، ان كنت لا تمانعين في مشاركته طعام العشاء.»

«السيد آدمسون؟» ثم عرفت المدعو عندما نظر المضيف إلى طاولة الوسط. فقالت بحدة: «أرجوك، اشكره نيابة عني وأبلغه ان جوابي هو لا!»

«شكراً لك، آنستي.»

بعد ان ابلغ المضيف رد زيلينا للرجل، وقف هذا الأخير وصرخ قائلاً: «ان كنت لا ترغبين في الانضمام الي، فسانضم إليك أنا!»

ماجت السفينة بقوة فيما هو يتكلم، فضحك اصدقاؤه بصخب وحاولوا مساعدته كي لا يقع.

الامر الذي دفع زيلينا إلى مغادرة القاعة فوراً لانها لم تستطع تحمل كل ما حدث. وبعد ان دخلت إلى مقصورتها

واقفلت الباب، سمعت احدهم يدق على الباب سائلاً: «ما الأمر؟ انا المضيفة، يا آنستي.»

ففتحت الباب، واذا بالمضيفة تقول: «لقد أخبرني مضيف في قاعة الطعام انك غادرت قبل ان تنهي طعامك. هل من شيء تودين ان احضره لك؟»

«هذا لطف منك، لكنني اكلت كفايتي.»

«كذلك فقد اخبرني المضيف ان رجلاً تصرف معك بوقاحة، لكن، يجب عليك ألاّ تتضايقي من جراء ذلك، فقط حاولي أن تنسي الأمر.»

لم تعرف زيلينا كيف تعلق على كلام المضيفة، التي قالت بعد لحظات: «ان اردت أي شيء، يا آنستي، دعيني اعلم فقط.»

«اشكرك، لكنني سأوي للفراش.»

ثم اقفلت الباب ثانية بعد خروج المضيفة وانتهت من قراءة الكتاب ثم آوت إلى الفراش. وأسفت لانه لن يكون لديها كتاب تقرأه في اليومين المقبلين، الا انها طمأنت نفسها بامكانية وجود كتب في السفينة.

استيقظت زيلينا باكراً جداً صباح اليوم التالي وتوجهت إلى مكتب ضابط السفينة لتسأله ان كان يوجد مكتبة على متن السفينة. فاخبرها ان هناك عدداً من الكتب في غرفة الكتابة، وطلب منها ان تحرص على إعادة الكتب بسبب فقدان العديد من الكتب في كل رحلة، واضاف مبتسماً: «حتى ان اكثر الناس المحترمين يصبحون لصوصاً اذا ما كان الأمر يتعلق بكتاب.»

«اعتقد ان ما يحصل معهم هو انهم يصلون إلى حيث

يتوجهون قبل ان ينتهوا من قراءة الكتاب ولا يتحملوا فكرة عدم معرفة النهاية!»

وافق الضابط زيلينا الرأي وقال في نفسه حين ابتسمت، انها اجمل فتاة رآها في حياته كلها، ثم سألها: «هل انت بخير، يا آنستي؟ لقد سمعت ان احدهم تحرش بك ليلة أمس؟»

فخطر لزيلينا ان السفينة تشبه القرية الصغيرة من حيث ان الخبر ينتشر في أرجاء المكان لحظة حدوثه.

«انا بخير، غير انه يبدو لي من الافضل ان اتناول العشاء في مقصورتي، ان كان ذلك ممكناً.»

«اخشى انك لن تجدي ذلك مريحاً، ولا تقلقي، لانني ساتحدث إلى ذلك الرجل واطلب منه ان يحترم نفسه ويتصرف بلباقة.»

«لا اريدك ان تفعل ذلك.»

فكرر الضابط بنبرة ابوية: «اتركي الأمر لي. نحن هنا نهتم بشؤون المسافرين ونعمل على راحتهم. لو كنت ابنتي، لكنت قلقت لسفرك منفردة.»

«انها المرة الأولى التي أقوم بذلك.»

«حسناً، ان ازعجك أي شيء، تعالي واخبريني. وما حدث ليلة امس، اعدك، أنه لن يحدث ثانية.»

«اشكرك.»

ولدى دخولها إلى قاعة الكتابة، وجدت خزانتين مليئتين بكتب معظمها ممل وسخيف. الا انها وجدت كتاباً يتحدث عن روسيا، فسحبته عن الرف واخذته معها إلى مقصورتها.

كان الكتاب صغير الحجم، لكنه مثير جداً، فهو يصف اجزاءاً مختلفة من البلد: المتاحف في موسكو، والقصور في سانت بطرسبورغ ولسوء حظها، ولسبب صغر الكتاب، أنهت زيلينا قراءته عند تمام الخامسة من بعد ظهر ذلك اليوم، ففكرت في ان تصعد إلى متن السفينة وتتمتع بالنسيم العليل. ورغم عدم معرفتها بمن هم مثل السيد آدمسون وبطريقة تصرفهم، الا انها كانت متأكدة من انهم الآن في غرفة التدخين يمضون وقتهم هناك.

لذلك ذهبت إلى الجانب الآخر من السفينة وجلست تتأمل البحر وتستنشق الهواء المنعش.

بالرغم من برودة الهواء، اصرت على بقائها في مكانها لانها تعتبر الهواء منعش ومنشط للقلب، ولم تغادر مكانها الا حين وجب عليها تبديل ملابسها للعشاء.

فكر اللورد تشارنوك بعد ظهر ذلك اليوم أيضاً ان الطقس ملائم للقيام ببعض التمارين الرياضية والمشي، فتجول على متن السفينة لمدة نصف ساعة، ومن ثم عاد إلى مقصورته.

فهو رجل نشيط ويمارس ركوب الخيل يومياً حين يكون على اليابسة. حتى انه يفضل العدو في فسحة منزله في تشارنوك بارك حيث يوجد اسطبل لمجموعة من أجود الخيول قام هو بنفسه بتربيتها.

حين كان في لندن، اعتاد اللورد ان يرتاد إلى الساحة الكبيرة في الصباح الباكر قبل ان تصبح مزدحمة بالناس. وعل عكس غالبية الناس، يفضل اللورد الاماكن التي لا يرتادها الناس باستمرار حتى يطلق العنان لفرسه.

وأمل ان يكون له متسع من الوقت كي يمارس ركوب الخيل في روسيا، لانه شعر ان بقاءه في القصور لاتمام المهمة سيخنقه. الا انه يعي ان المسافة التي يجب عليه قطعها للوصول من مكان إلى آخر تعادل ركوبه الخيل لعدة اميال في انكلترا.

ثم تنهد حين خطر له عدد الممرات التي سيمر عبرها للدخول والخروج إلى مكاتب العملاء واللقاءات الطويلة التي عليه تحملها.

كما انه مهما يكن قدر تفاؤل اللورد بالمرستون، فقد كان هناك احتمال كبير ان تبوء مهمته بالفشل. ثم طمأن نفسه قائلاً انه قلما يفشل. فكلمة «فشل» هي ما يكره سماعها ويعمل جاهداً على الا يستعملها بين بقية المفردات الأخرى.

غير أن ما من احد ينظر إلى وجه اللورد تشارنوك الغامض، والخالي من أي تعبير، ويدرك انه خلف هذا القناع يتمتع اللورد بحس مغامرة عالٍ جداً.

فهو يحب اختراق الدهاليز الدبلوماسية تماماً كما يشعر جندي متفاني في معركة، أو كما هو الصيد بالنسبة للصياد، وفي رحلته هذه، يقف اللورد نداً لند مع أمهر وأخبث الأدمغة في عالم السياسة برمته.

ذلك لان هناك مئات الاسئلة التي يتمنى كل دبلوماسي ان يجد اجابة لها تتعلق حول نوايا القيصر. وذلك لكونه رجلاً غامضاً مما يجعل التفكير بالخط الذي سينتهجه مع عدد من الدول الاوروبية الأخرى بعيداً عن تدخله في شؤون تركيا، يجعل ذلك صعباً.

وكلما تعمق اللورد في التفكير في عدد المصاعب التي ستواجهه بعد وصوله إلى سانت بطرسبورغ، كلما زاد خوفه.

بعد ذلك طمأن نفسه قائلاً انه مهما يكون العملاء الروس مراوغين ويلفهم الغموض، سيتمكن من النيل منهم، وذلك بفضل قوة كبيرة محركة داخلية.

ولم يكن هذا الامر ليقلقه، لكنه كان يتمتع بحدس يظهر له ما يفكر به نده، واكثر من ذلك، ما يخبئه. ولا يستعمل اللورد هذه القوة غالباً، وانما عند الضرورة الملحة، ومجرد التفكير بها يمنحه من الارتياح ما لا يستطيع جيش ضروس باكمله ان يمنحه لقائد في معركة كبرى.

وبينما هو في الممر متوجهاً نحو مقصورته سمع صراخاً، فظن انه مخطىء. ثم عاد وسمع الصراخ ثانية. وبعد ان نظر حوله محاولاً ايجاد مصدر الصوت، لاحظ انه يقف امام باب غرفة الكتابة. ليسمع بعد ذلك صوت امرأة تقول: «ابتعد... عني. دعني... وشأني!»

«هذا ما لا انوي فعله، يا آنستي الجميلة!»

ولدى سماعه الجملة الأخيرة، تذكر اللورد تشارنوك انه سمع هذا الصوت ليلة امس خلال العشاء. فهو لم ينس بعد ذلك الضجيج الذي افتعله هذا الرجل المزعج، ولم يدرك اللورد ان الفتاة التي تركت القاعة هي ابنة اخت الكونتسية. لم يدرك ذلك الا متأخراً.

وخطر له ان يفعل شيئاً ما حيال ذلك، لكن بما ان الفتاة قد غادرت المكان، قال في نفسه ان افضل ما يقوم به هو ان يتظاهر بانه لم يعرف ما حصل.

أما الآن، ودون تفكير وتأمل، ودون ان يعبر عن عدم رغبته في التورط بالأمر، فتح اللورد باب الغرفة ودخلها. وبنظرة من عينيه، عرف ما كان يدور فيها.

لقد كانت تقف زيلينا معاكسة لخزانة الكتب، تحاول جاهدة الهروب من الرجل الذي حاول إزعاجها ليلة أمس.

ومع صوت الباب الذي فتحه اللورد بقوة، استدار الرجل ليرى من يقف عند الباب، فتمكنت زيلينا في تلك اللحظة ان تبتعد عنه. ثم تقول متوسلة اللورد: «ارجوك... اوقفه! ارجوك... لا تدعه... يقترب مني!»

فاخذ اللورد تشارنوك ينظر اليه بعينين حادتين قاسيتين، ثم قال بحدة تشبه حدة ضربة السوط: «سأرسل إلى ربان السفينة تقريراً بتصرفك هذا، وسأطلب منه ان يبقيك محتجزاً في مقصورتك بقية الرحلة!»

اوشك آدمسون على الرد، الا انه عاد وفضل ان ينسحب دون أي تعليق.

وبعد ان خرج واغلق الباب، قالت زيلينا التي كانت ترتعش من شدة خوفها: «اشكرك... اشكرك... لقد... انقذتني.»

«تفضلي بالجلوس.»

شعرت بانها ان لم تستجب لطلب اللورد، فستقع ارضاً، لذا أسرعت ونفذت ما طلبه منها.

فجلست على كرسي عال، وبالنظر إلى عينيها القاتمتين، وحركة يديها ترتجفان، ادرك اللورد كم هي خائفة. لذلك، جلس اللورد إلى جانبها وقال: «لما لا ترافقك احدى الخادمات؟ لا يمكن ان تكوني وحدك في هذه الرحلة؟»

«انا... انا... بمفردي.»

وعندما رأت الدهشة في عينيه، اضافت: «لقد تم ترتيب... كل شيء... عبر السفارة الروسية... واعتقد تماماً كما اعتقدت عمتي كاثلين... انهم سيرسلون... احداً ليبقى مرافقاً لي.»

توقع اللورد الامر عينه، لكنه قال في نفسه ان الكونتيسة اما انها لم تتعب نفسها وتدقق في تفاصيل الترتيبات، واما انها رفضت دفع تكاليف رسوم اضافية للخادمة المرافقة لشدة بخلها.

ثم قال بصوت عال: «انت صغيرة جداً على السفر منفردة.» واوشك ان يقول: وجميلة جداً، الا انه ظن بان كلماته هذه ستخيفها اكثر.

فعلقت زيلينا بصوت خفيض مرتجف: «انه حماقة مني... الا ابقى في مقصورتي... بعد الطريقة التي تصرف بها... ليلة أمس. لكن الضابط اخبرني ان ذلك لن يتكرر ثانية.»

«أخشى ان يكون هذا ما تواجهينه على متن أي سفينة ان كنت بمفردك.»

بدا كلامه هذا، بالنسبة لزيلينا، وكأنه يؤنبها لحماقتها. لم تتمكن من ايجاد كلمات ترد بها عليه، ولم تفعل أي شيء سوى انها حنت رأسها وكأنها تلميذة مدرسة تم توبيخها.

ثم سأل اللورد بعد مرور لحظات عديدة: «ما سبب ذهابك إلى روسيا؟»

«لقد رتبت لي عمتي كاثلين... أمر اقامتي... مع الاميرة فولكونسكي.»

«على أي اساس؟»

«لم يبد لي ذلك... واضحاً تماماً... لكنني اعتقد انه... يفترض بي ان اعلم اولادها... اللغة الانكليزية.»

«وهل أنت فعلاً تودين ذلك؟»

كان هناك صمت تام، شعرت زيلينا بعده ان عليها اطلاع اللورد على حقيقة الامر، فقالت: «انه امر... لم افكر بالقيام به... يوماً... لكن والداي توفيا... وعمتي كاثلين... هي الوصية علي.»

قالت زيلينا كلاماً واضحاً لم يكن يحتاج إلى شرح وتفسير. وايقن اللورد تشارنوك ان كونتيسة روثباري لم تكن لتقبل بالوصاية على احدى اقاربها، خصوصاً وان كانت فتاة بجمال زيلينا.

ولم يرغب يوماً بالاستماع إلى الثرثرات التي كانت تنتشر في الأرجاء حول الكونتيسة واللورد ماريو، وهو امر يستحيل اخفاءه لانه حديث الناس جميعاً.

كان اللورد تشيرنوك معجباً باللورد ماريو على رغم معرفته بعدم قدرة الأخير على مقاومة أي امرأة جميلة يقع نظره عليها. كذلك فقد كان واثقاً من ان للكونتيسة دوافع خاصة تجعلها تبعد زيلينا عن لندن إلى اقصى الاماكن.

سألها: «هل فكرت يوماً في زيارة روسيا؟»

«لم يكن هذا البلد من ضمن البلاد التي فكرنا... والدي وانا... بزيارتها. الا ان عمتي كاثلين قد وجدت هذا البلد مناسباً لاقيم فيه بما ان صديقة والدتي روسية، واسمي روسي.»

«ما اسمك؟»

«زيلينا.»

فقال في نفسه ان روسيا هي الأبعد مسافة عن لندن من أي بلد اوروبي آخر. وان هذا هو السبب الذي دفع بالكونتيسة لاختيار روسيا.

«أنا واثق من انك ستجدين البلد رائعاً ومثيراً ما ان تعتادي على العيش فيه.»

«اتمنى ذلك. لهذا السبب... كنت ابحث عن كتب تتحدث عن روسيا.»

ثم نظرت إلى خزانة الكتب المفتوحة وكأنها ترغب في ايضاح سبب وجودها للورد تشارنوك في قاعة الكتابة اكثر من أي أمر آخر.

فقال بتذمر: «لا اتصور ان هناك اي من الكتب المهمة هنا. لكن بما انه في حوزتي بعض الكتب، فانني ساطلب من مساعدي ان يحضرها لك. وانا واثق من انك ستجدين فيها ما تودين معرفته، رغم ان قراءتها ليس بالامر السهل.»

ابتسمت زيلينا لارتياحها، وادرك اللورد تشارنوك ان حدة اضطرابها قد خفت بشكل ملحوظ.

«ما من كتاب يصعب قراءته. واشكرك كثيراً لاعارتك الكتب لي. وان كان عندك أي كتاب متعلق بالسياسة، اكون ممتنة لو ترسله لي، فانا افضله اكثر من أي كتاب آخر.»

ارتفع حاجبا اللورد وسأل مستغرباً: «كتاب يتعلق بالسياسة؟»

«لقد اخبرني والدي عن الاحتلال البروسي لبولندا والمشكلة مع تركيا قبل ثلاثة اعوام. فقلت في نفسي حينها ان اللورد بالمرستون ذكي جداً.»

«انه فعلاً كذلك.»

كم كانت دهشته كبيرة لمعرفته عن اهتمام زيلينا بمثل هذه الأمور السياسية، لانه اعتاد على عدم اكتراث الفتيات وخصوصاً الجميلات بمثل هذا الموضوع.

ومهما يكن، لم يكن في نية اللورد ان يناقش أموراً كهذه مع فتاة قد تكرر أو تحرف ما قاله. لذلك، وقف وقال: «ان كنت تشعرين بتحسن، يا آنسة تايفرتون، سأوصلك إلى مقصورتك. واقترح ان تتناولي طعام العشاء هناك، خصوصاً بعد هذا الحادث المزعج الذي تعرضت له.»

«هذا ما انوي فعله بالضبط، وان كان بحوزتي كتاب اقرأه، فانني لن اظهر ثانية الا حين نصل ستوكهولم.»

«ستوكهولم.»

«انه المكان الذي سأنتقل فيه من هذه السفينة إلى أخرى روسية.»

ثم رفعت رأسها إليه وسألته: «هل ستغادر السفينة قبل وصولنا إلى ستوكهولم؟»

وشعرت خلال حديثها هذا انها تفرض عليه ملازمتها. ألا انها وفي نفس الوقت، لم تستطع ان تتحمل مجرد فكرة ان يتعرض لها السيد آدمسون ثانية ولا يكون اللورد موجوداً.

ان انها لم تحلم، ولم تتخيل قط انها قد تتورط في علاقة مع رجل مثل آدمسون دون وجود احدهم قربها تلجأ إليه.

فقررت الآن ان تمكث في مقصورتها والباب مقفل عليها إلى ان يحين وقت انتقالها إلى السفينة الروسية.

الا انه خطر لها فجاة انه قد يكون على متن تلك السفينة الأخرى اشخاص من امثال آدمسون، وان كانوا من الجنسية الروسية، سيكون الأمر أسوأ.

وفيما هي تفكر في كل هذا، لم يخطر لها ان عينيها كانتا تظهران كل ما يدور في ذهنها، او ربما لأن اللورد يتمتع باحساس عالٍ يجعله يعي مخاوفها التي كانت تشعر بها ففكر للحظات ثم قال: «في الواقع، ساترك السفينة عند وصولنا إلى كوبنهاغن.»

فأدركت زيلينا حينها انه سيكون عليها البقاء في السفينة حتى عبور بحر البلطيق إلى ستوكهولم، وافترضت احتمال ان يكون السيد آدمسون لايزال على متن السفينة. فقالت بعد لحظات من الصمت: «لا يحق لي... ان اطلب منك هذا... لكن هل يمكنك ان... تتحقق لي ما ان كان ذلك الرجل... سيترك السفينة في كوبنهاغن او انه سيبقى حتى... وصولنا إلى ستوكهولم؟» ثم اضافت بقلق اكبر من الذي كانت تتحدث به سابقاً وكأنه يصعب عليها ضبط نفسها اكثر من ذلك: «هل تعتقد انه... ذاهب أيضاً... إلى سانت بطرسبورغ؟»

«سأعرف إلى اين يتوجه هذا الرجل، وسأتأكد من ان سيسيطر على تصرفاته. اعدك كذلك ان الربان سيتخذ الاجراءات اللازمة المتعلقة بهؤلاء الذين يتحرشون بالفتيات الوحيدات. لكنك تدركين تماماً كما ادرك انا انه لا يجدر بك السفر وحيدة.»

لقد تكلم اللورد بعصبية لان تصرف الكونتيسة هذا قد اغضبه، فهي جعلت الفتاة في مثل هذا الموقف الدقيق وجعلته يشعر بمسؤولية تجاهها.

«أنا... آسفة... آسفة جداً... لازعاجك. ارجوك... اعذرني... وسأحاول الا... أز... أزعجك... ثانية.»

أحس اللورد تشارنوك من نبرة صوتها والخوف الذي ظهر مجدداً في عينيها، انه تصرف بشيء من القساوة مع انسانة ضعيفة. فقال: «قلت لك اتركي هذا الأمر لي، واعتقد ان شرفتني وقبلت دعوتي للعشاء هذا المساء، ان هذا سيفهم ذلك الرجل الوقح أنك في حمايتي. وفي هذه الحالة، اؤكد لك انه لن يتحرش بك ثانية.»

«هل تعني هذا حقاً؟»

«بل يسرني. ولربما اتمكن من اخبارك ما تودين معرفته عن روسيا.»

فإذا بها تتنهد بعمق ويتحول الخوف في عينيها إلى بريق ارتياح.

«هذا لطف منك... لكن هل انت واثق من انني لن ازعجك... وانك لا تفضل ان تقرأ منفرداً؟»

ابتسم اللورد وقال: «ان ساعدنا بعضنا على ذلك، قد نتمكن من القراءة معاً، لذلك احضري كتابك معك، الا انني اشك ان قراءتك له ستكون ضرورية.»

«لا اتمنى ذلك!»

ولانها تكلمت بعفوية، ضحك وقال: «اعتقد انه يمكننا تناول العشاء بعد الوقت المحدد بقليل، ليتسنى للاشخاص الذين لا نرغب برؤيتهم بانهاء طعامهم. سانتظرك في القاعة عند تمام الثامنة الا ربع.»

«اشكرك... اشكرك... كثيراً.»

• • •

واجهت زيلينا مشكلة في تسريح شعرها حين كانت

تتحضر لتناول العشاء مع اللورد. وكانت خادمة عمتها قد وضبت لها ثلاثة اثواب ليلية بسيطة لتبدلهم اثناء الرحلة، قائلة ان الاثواب الاخرى باهظة الثمن وانه لا يجب ان تلبس احدها الا بعد وصولها إلى سانت بطرسبورغ.

الا ان هذه الاثواب البسيطة كانت في نظر زيلينا رائعة لانه تم شراءها من شارع بوند. ولم يخطر لها ان عمتها قد فعلت ذلك لانها كانت تنوي ان ترسلها بعيداً عن لندن، حتى ان الاثواب التي اشترتها تكفي لسفر سنة او اكثر.

غير ان وجود هذه الاثواب بحوزتها جعلها تشعر بالارتياح بغض النظر عن دوافع عمتها، وارتياحها مرده إلى انها عندما تصل إلى سانت بطرسبورغ لن تعامل على انها خادمة رثة المظهر.

إضافة إلى انها غير واثقة ما إذا كان الناس في روسيا سينظرون اليها على انها مربية ليس الا، تماماً كما هو الحال بالنسبة إلى نظرة الناس إلى المربيات في المجتمع الانكليزي، والتي استدعت شفقة والدة زيلينا حين قالت لدى سماعها لسيدة توبخ المربية: «يا للمسكينة!»

وقالت زيلينا لوالدتها في ذلك الوقت: «من القسوة ان تتحدث أي سيدة مع شخص كالمربية لا يستطيع الرد على ما يقال له؟»

«على المربيات ان يتحملن ذلك لانهن بين نارين.»

فنظرت زيلينا إلى والدتها بعينين متسائلتين وقالت: «يبدو انهن لا يعتبرن بمستوى مديرات عملهن، ومع ذلك يعتبرن أرفع مستوى بقليل من الخدم. لذلك يجدهم الانسان

يعيشون في عالم خاص بهن، مع بعض الامتيازات. لكنني مع ذلك اشعر بالاسى عليهن.»

ومنذ ذلك الحين، عمدت زيلينا إلى التحدث مع المربيات في أي منزل يذهبن اليه، وشعرت إلى أي حد كن يشعرن بالامتنان لاهتمامها بهن. الا انها وبالرغم من رأيها الخاص، وجدت الموقف الذي ستكون عليه بعد وصولها إلى روسيا مهيناً ومخيفاً.

لكنها عادت وقالت في نفسها انه ان كان الوضع لا يحتمل فانها ستعود أدراجها إلى لندن، وبعد عودتها لن يكون في وسع عمتها كاتلين القيام بفعل أي شيء تجاهها.

بعد ان انتهت من ارتداء ملابسها وتسريح شعرها نظرت إلى صورتها في المرآة وقالت في نفسها انه لا يبدو عليها لا من قريب ولا من بعيد هيأة مربية.

في الواقع، شعرت زيلينا انها ذاهبة إلى أول احتفال تظهر فيه وحدها رسمياً، الامر الذي اثارها كثيراً.

ورغم ذلك شعرت بقليل من الحزن لانها وخلال وجودها في لندن لم تتمكن من حضور احدى الحفلات التي كان يكتب عنها في ليديز جورنال.

فقالت في نفسها بشيء من الأسى: قد لا أدعى، حتى في روسيا، إلى حضور احتفال. ثم اضافت انها لن تمضي الوقت في تأمل ما قد يحصل في المستقبل وانها ستستمتع بوقتها الليلة لانها ستتناول العشاء مع رجل يملك الاجابة على العديد من الاسئلة التي اثارت حيرتها. وخشيت من ان تكون قد وصلت إلى القاعة باكراً مما سيضطرها إلى الانتظار بمفردها، لكنها وجدت اللورد بانتظارها عندما

دخلت القاعة، مرتدياً بزة ليلية زادت من مهابة هيأته اكثر مما كان عليه خلال فترة بعد الظهر.

حنت رأسها محيية له فقال: «انا اكيد من انك تشعرين بالجوع، ويساورني شعور انه علينا ان نجعل حديثنا مسلياً ومستاغاً لنعوض بذلك عن عدم كون الوجبة سائغة.»

«هذا ما أتوق اليه. وانا واثقة من انك حين تتحدث عن الامور التي أود سماع التفاصيل عنها، ستجد الطعام لذيذ جداً.»

«آمل فقط الا يخيب ظني.»

نبرة صوته الجافة جعلت زيلينا تشعر وكأنها بدت متحمسة اكثر من اللازم، وطلبت من نفسها بتواضع وبساطة ان تتصرف بطريقة رزينة وواعية بما انه تلطف بطلب تناول العشاء معها، في الوقت الذي تدرك تماماً انه يفضل ان يقرأ فيه كتاب.

ولدى دخولهما إلى قاعة الطعام معاً، لاحظت زيلينا صمتاً مفاجئاً يسيطر على المكان، وان الجميع ينظر اليهما، الا انها لم تأبه لامرهم، وفي نفس الوقت كانت على ثقة من ان السيد آندسون قد تسلم الرسالة التي اراد اللورد تشارنوك ابلاغها له، الا وهي ان زيلينا في حمايته، الامر الذي يجعله لا يحاول مجدداً التحرش بها.

وعندما وصلا إلى مكانهما المحدد، كان بانتظارهما مضيفان ليهتما بهما.

لقد كانت زيلينا على ثقة تامة من انها ما كانت لتأكل أي من الاصناف التي قدمت لهما لو انها كانت تجلس على طاولة بمفردها.

فبدأ الاثنان بأكل الكافيار، ثم قدم لهما اصناف أخرى قالت زيلينا انها لذيذة، اما اللورد تشارنوك فقد تناول الطعام دون أي تعليق.

ثم استأنفا الحديث، وكم كان سرورها وارتياحها شديدان لانها وأخيراً وجدت من يحدثها عن روسيا. وقد كانت على قدر واف من الذكاء لتدرك ان ما كان اللورد يقوله هو موضوعي إلى حد ما وموثوق لدرجة انه يمكن طبعه في كتاب مرشد دون ان يدقق احدهم في مصدر هذه المعلومات.

وكم ادهشها وأثارها ان تستمع إلى وصفه لبناء سانت بطرسبورغ فيما لو كانت العاصمة تقع في بقعة أخرى من روسيا حيث يكون المناخ صحياً اكثر.

اضاف اللورد: «ان القيصر بطرس شخص رائع، ورغم انك ستجدين سانت بطرسبورغ مدينة تثير الرهبة، الا انه من الصعب نسيان ما ادعاه المؤرخون وهو ان مئتي الف شخص قد ماتوا في فترة عشرين عاماً، فيما كانت المدينة تبنى.»

شهقت زيلينا لدهشتها وخوفها، الا انه تابع قائلاً: «رغم استحضار عمال من كل انحاء اوروبا، الا ان الاجور لم تدفع، واستفحلت ظاهرة الفرار من الجندية، وتفشى المرض والموت.»

كان اللورد تشارنوك على يقين من انه وخلال حديثه كان يسرد الاحداث لزيلينا بأسلوب جعلها تتخيل انها تحصل نصب عينيها.

واعتبر ذلك اطراء لم يكن يروق له من قبل، وهو ان يكون

بصحبة امرأة مأخوذة بحديثه لدرجة جعلته يعتقد بأنها لا تعتبره رجلاً عادياً. ثم تابع حديثه مستعرضاً المرات التي ثار فيها العبيد، فيما القيصر، والذي كان يعيش لسنوات عديدة في كوخ خشبي مؤلف من ثلاثة غرف، منغمس في نشاطات متعددة منها طرق صفائح الحديد التي تزن مئات الباوندات، أو اجراء عملية لسيدة تعاني من داء ما.»

«هل كان مجنوناً؟»

«لا، روسياً! غير ان اصلاحاته وابتكاراته مؤثرة جداً، فقد انعش صناعة المواد الاولية، وأسس كليات حربية وبحرية، ومدارس للهندسة، وأنشأ أول صحيفة، وأول مسرح عام، وأول مستشفى.»

«يبدو لي هذا رائعاً!»

«لكن الاستبداد ظل سائداً. فقد خسر الاشراف استقلالهم بحيث ان القيصر لم يعد يسمح لأي شخص امتلاك أي شيء قد يسميه خاصاً به.»

واستمر الاثنان في حديثهما إلى ان اصبحا وحيدين في قاعة الطعام.

فادركت زيلينا حينها انه يجدر بهما الانصراف، فقالت بصوت هادىء يعبق بالامتنان:

«اشكرك! اشكرك! لا يمكنني ان اخبرك كم كان رائعاً ان استمع اليك واعرف الكثير. لقد كان ذلك في غاية اللطف منك.»

«أنا أيضاً استمتعت بالامسية. اتمنى ان استطيع اقناعك بتناول العشاء معي غداً.»

كان من الصعب بعد قوله ذلك الا يرى بريق الفرح يتلألأ

في عينيها، فسألته: «هل انت واثق... من انك لن تشعر بالملل؟»

«قد يبدو ذلك انانية مني ان الح في طلب موافقتك على دعوتي هذه.»

«شكراً لك. انه امر ساظل بانتظاره طيلة اليوم، حتى وانا اقرأ كتبك.»

ثم غادرا قاعة الطعام سوياً، وعندما وصلا إلى ظهر المركب، حيته زيلينا وقالت: «اشكرك الف مرة، يا سيدي اللورد، على هذه الامسية الرائعة التي أمضيتها معك!»

وتوجهت بعد ذلك إلى مقصورتها دون ان تنتظر أي تعليق منه.

فقال في نفسه وهو يراقبها انه لم يلتق في حياته قط سيدة لم تحاول البقاء معه لوقت اطول او سيدة تستمع إلى ما يقوله بهذا التركيز. فاعلن انها تختلف عن عمتها!

ثم دخل إلى مقصورته وهو يفكر في الاعمال الكثيرة التي يجب عليه انجازها هناك.

الفصل الثالث

قال ربان السفينة: «بلغني سيدي اللورد، أنك قد تغادرنا في كوبنهاغن.»

«هذا صحيح. إذ أن الإمبراطور سيرسل اليخت الملكي والذي اسمه إسكورا لينقلني.»

«يشرفنا ذلك.»

ثم سكت الربان للحظات، فأدرك اللورد تشارنوك أن الربان يفكر في قول شيء ما.

خلال ذلك الوقت، كانت السفينة تمر عبر المضيق الذي يفصل بين الدانمارك والسويد، حيث المشاهد الطبيعية خلابة على الجهتين، وكانت السفينة تتحرك بسرعة دون مساعدة الأشرعة الإضافية.

قال الربان أخيراً: «أنا قلق، يا سيدي اللورد بشأن الآنسة تايفرتون، الذي وحسب معلوماتي، ستبحر معنا إلى ستوكهولم.»

«هذا ما قالته لي.» وتساءل اللورد عن السبب الذي يجعل الربان يبحث معه أمر زيلينا، إلا أن كلماته التالية أوضحت السبب.

«لقد فهمت من كلامي مع الضابط أنك أنقذت الآنسة تايفرتون، يا سيدي اللورد، من أيدي أحد المسافرين المزعجين.»

«كنت على وشك أن أطلعك على الأمر بنفسي. إلا انني

أوضحت له أنه إن تحرش بالفتاة ثانية، فسيكون حسابه معي أيضاً وليس معك فقط.»

«لقد كانت طريقتك مؤثرة وفعالة. لكنني قلق بشأن ما قد يحصل بعد أن تغادرنا.»

لم يعلق اللورد على ما سمعه، لكن العبوس علا جبهته، لأنه لم ترق له فكرة أنه مسؤول عن زيلينا، وقال في نفسه إن كلام الربان معه لم يكن لائقاً.

وتابع الربان كلامه قائلاً:

«يمكنني تولي أمر السيد آدمسون وأمثاله ما داموا من الجنسية الإنكليزية، لكن بعد محطتنا في كوبنهاغن، يكون هناك عدد من الجنود الشبان الذين يبحرون معنا إلى ستوكهولم. وهم يستمتعون بوقتهم بطريقتهم الخاصة. وأعتقد أن سيادتك تدرك أن سفر فتاة مثل زيلينا وحيدة يلقي على كاهلنا مسؤولية كبيرة.»

فأدرك اللورد تشارنوك قصد الربان من خلال تلميحاته، لكنه أعلن في نفسه أنه لا ينوي اصطحابها معه على متن اليخت الملكي. وفي نفس الوقت علم أنه ما إن يغادر السفينة الإنكليزية، حتى يكون وضعها لا يحتمل.

وذلك لعلمه ما قد يفعله الجنود حين يكونون في إجازة، وتصميمهم على الاستمتاع بوقتهم قبل أن يصلوا لثكنات جيش أخرى.

وعندما خطر له هذا، بدا له وبوضوح شديد كم ستكون زيلينا قليلة الحيلة في موقف سوف يحصل لا محال وذلك لكونها جذابة جداً.

www.liilas.com

فقد وجدها حين تناولا العشاء معاً، ذكية ومثقفة، وظهر له جلياً مدى براءتها.

وإذا به يشعر بغضبه يزداد أكثر وأكثر عندما تخيل أن كاتلين روثباري تجرأت وجعلت فتاة لا حيلة لها تخوض تجربة قد يجدها من هو أكبر منها سناً صعبة.

فقد اكتشف مدى براءة زيلينا، وأدرك أنه لو لم يكن اللورد نفسه منقذها لكان تصرف معها بطريقة أخرى.

فقد قالت زيلينا عندما أوشكا على إنهاء طعامهما: «لقد استمتعت كثيراً بقراءة الكتاب الذي أعرتني إياه، وقد يبدو ذلك جشع مني، إلا انني أتمنى لو تعيرني كتاب آخر.»

سألها متعجباً: «هل أنهيت قراءته؟»

«أنا سريعة في القراءة.»

«هذا جيد. ولحسن الحظ أن معي عدداً كبيراً من الكتب.»

تراقص بريق الفرح في عينيها وكأنه قدم لها هدية لا تقدر بثمن، ثم قالت: «أنت لطيف جداً! هل أحضر الكتاب الذي أنهيت قراءته إلى مقصورتك؟»

فخطر له أن يكون فعلها لذلك هو ما فكرت به عمتها أو أي امرأة أخرى تسعى إلى الايقاع به.

وبعد أن نظر في عيني زيلينا، أدرك أنها على قدر غير واف من الدراية بأصول التصرف في الوسط الاجتماعي. ولعل ذلك يفسر اقتراحها الذي قدمته والذي لا يتوافق مع هذه الأصول. فقال: «سأرسل مساعدي ليأخذه منك بعد العشاء في مقصورتك، وأرسل لك معه كتاباً آخر أنا واثق من أنك ستستمتعين بقراءته.»

«شكراً جزيلاً. لكنني لا أريد أن أتعبك.»

وفكر أن يقول لها بأن رجلاً غيره كان ليستفيد من الاقتراح الذي تقدمت به. إلا أنه عاد وقال في نفسه ان ذلك قد يلفت نظرها إلى أمور أخرى، ففضل أن تبقى على حالها، لاعتقاده أن ذلك قد يؤمن لها الحماية.

وفي نفس الوقت، شك في اعتقاده هذا خصوصاً عندما تصل روسيا.

فتوصّل إلى قرار وهو أنه كرجل نبيل، لن يترك زيلينا تسافر وحدها إلى ستوكهولم على متن سفينة تنقل كذلك جنوداً شباناً ورجل مثل آدمسون حاول أن يتحرش بها.

فقال ممتعضاً لأن تدخله في الأمر قد يؤدي إلى تلميحات من نوع آخر: «يسرني أنك ذكرت هذا، أيها الربان. فأنا سأكتب جدياً عن حل بشأن الآنسة تايفرتون، وسأناقشه مع القائم بالأعمال البريطاني في كوبنهاغن، السير هنري واتكن ويليامز وين الذي، وبلا شك، سيكون بانتظار وصولي.»

«أشكرك، سيدي اللورد. لقد نزعت عني عبئاً ثقيلاً.»

ولأن ما حصل مع زيلينا وإيجاد حل له أصبح جزءاً من عمله، فقد أزعج اللورد تفكيره بها خلال فترة بعد الظهر.

فعندما التقيا على العشاء، شعر كم هي متشوقة لتحدثه عن الكتاب الذي أعارها إياه. قالت: «انه ممتع جداً، خصوصاً حين يتحدث عن السياسة الروسية المتعبة فيما يتعلق ببولندا، لكنني لا أجد ما كُتب عما حدث هناك صحيح تماماً.»

نظر اللورد إليها بدهشة وقال: «ماذا تعنين بقولك هذا؟»

«لقد تذكرت للتو، رغم حدوث ذلك قبل بضعة سنوات ما قرأته في ذلك الحين عن القسوة التي اتصفوا بها حين

ابعدوا مائة ألف طفل بولندي عن أهلهم وأودعوهم في روسيا.»

ارتشف اللورد قليلاً من العصير وتساءل عما يجب أن يقوله لها. فقد شعر بذهول ورعب شديدين من التقارير التي تلقاها عن وحشية الروس، لدرجة أنه انضم إلى الراديكاليين في البرلمان، تلك المجموعة التي أجبرت اللورد بالمرستون على شجب هذا العمل الشنيع ونقل احتجاجهم إلى القيصر.

وقد كان من بين هؤلاء الذين دافعوا عن اللورد بالمرستون الذي دافع بدوره عن الروس حين ذكر القرض الذي دفعته روسيا لأوروبا لرد هجوم نابليون عن بلدهم.

لكن بما أن اللورد لم يعلق على كلامها، قالت بنبرة صوت تعبق بالأحاسيس: «لقد قرأت مقالة صادرة عن مجلس العموم تصف كيف كان الأطفال يصرخون بينما يتم ابعادهم عن وارسو، وأمهاتهم تهرع خلف القطارات في محاولة منهن لإيقاف القطارات.»

ثم نظرت إلى اللورد تشارنوك، فلم يمكنه إلا أن يرى الذعر باد على وجهها عندما أضافت: «كيف يمكنني أن... أتعايش بسلام مع شعب... تصرف بطريقة كهذه؟»

ساد الصمت للحظات، ثم قال اللورد:

«أريد أن أكلمك بشأن زيارتك لروسيا، لكنني أقترح أن ناكل شيئاً ما أولاً، ونناقش أمراً ألطف بقليل من الذي بدأت به الحديث.»

ظنت زيلينا أنه يسخر منها، فتورد خداها، وقالت: «أنا... آسفة.»

تحدث اللورد عن الدانمارك وقال انه من المؤسف أنها لن تتمكن من رؤية الأكواخ الدانماركية، التي تتألف من طابق واحد، كبير وعالٍ.

ولأنها تجد كل ما يقوله اللورد مثيراً، فقد كانت زيلينا تصغي إليه بتركيز شديد إلى أن قُدمت لهما القهوة بعد انتهائهما من تناول العشاء.

وعندما بدأ الناس بمغادرة قاعة الطعام، الأمر الذي جعلها أكثر هدوءاً، قال اللورد: «ما أريد التباحث معك بشأنه هو زيارتك إلى سانت بطرسبورغ.»

فإذا بتعابير الارتياح تتبدل بتعابير قلق عن وجه زيلينا حين قال: «لقد أخبرتني، في لقائنا الأول، ان عمتك لم تكن حاسمة تماماً بشأن ما قد تفعلينه بعد وصولك إلى هناك.»

«لم تجب على أسئلتي... مباشرة. إلا انني واثقة من أنها قد رتبت لي وظيفة... أن أكون مربية لأولاد الأميرة.»

«في الواقع، وإن كان هذا صحيحاً، أقول لك إن الوظيفة لن تكون مهنية كما هو حالها في المنازل الإنكليزية.»

فنظرت زيلينا إليه مستوضحة، فقال: «قبل عامين، استدعي الأمير كريستوفر دي ليفين، والذي كان سفيراً لروسيا في انكلترا، والذي زوجته هي إحدى الشخصيات البارزة في المجتمع في لندن، استدعي إلى بلده الأم ليكون الأستاذ الخصوصي لأكبر أولاد القيصر.»

فسألت بدهشة: «هل يمكن أن يكون هذا صحيحاً؟»

«أؤكد لك انني واثق من كل كلمة أقولها لك.»

قالت مستدركة: «لم أقصد أن أكون فظة... لكن كل المربيات اللواتي التقيتهن كن مخلوقات

مسحوقات... يبدين أسفهن لكونهن... على قيد الحياة.»

«خطر لي أن يكون هذا ما تفكرين به. لذلك يجب أن نتأكد من أن هذا لن يحصل معك.»

«كيف يمكنني أن أمنع حدوثه؟»

فاسترخى اللورد على كرسيه، وقال: «إن الأرستقراطيين الروس، تماماً كما أعرف أنا وأنت هم متكبرون، ولا يقدرون سوى الأفضل والأغلى ثمناً.»

نظرت زيلينا إليه بدهشة بينما كان يقول: «إن قدمت نفسك بتواضع وبساطة، فأنا أؤكد لك أنهم حينئذ سيعاملونك كما يعاملون أبناء شعبهم، أي باحتقار ولا مبالاة.»

وفيما كان يلفظ كلماته الأخيرة، شعر أنه يسيطر على دفة الحديث، فقال باختصار: «ما أقترحه هو أن تظهري للأميرة أنك من عائلة إنكليزية عريقة، منذ البداية، الأمر الذي يجعلك مساوية لهم في المستوى، ربما باستثناء العائلة الملكية.»

انحبست أنفاس زيلينا وقالت: «أفهم ما تعنيه... لكن كيف يكون لي أن أجعلهم يعتقدون انني... من عائلة عريقة، حين أصل... دون وصيفة ترافقني، وأنا، على حد علمي، مدعوة من قبل الأميرة للاهتمام... بأولادها؟»

قال اللورد تشارنوك في نفسه ان استنتاج زيلينا هذا سريع وعشوائي. فقال بصوت عالٍ وحاسم: «هذا هو الانطباع الذي يجب ألا تظهريه من لحظة وصولك.»

«لكن... كيف؟ كيف؟»

«سأقول لك كيف. والشخص الأول الذي أنوي مناقشة هذا الأمر معه هو القائم بالأعمال الإنكليزي في كوبنهاغن.»

«حيث تغادر... السفينة.»

«الأمر الذي اعتقد أنك يجب أن تقومي به أنت أيضاً.»

«أتعني أنه... يمكنني... مرافقتك؟»

أدهشه شدة لمعان البريق الذي كان يتراقص في عينيها، وسألها: «أكنت تعلمين ذلك؟»

«أجل، بالطبع. لقد أخبرني مساعدك أن القيصر سيرسل لك اليخت الخاص به لنقلك إلى هناك.»

«هذا صحيح.» ثم قال في نفسه انه يجب أن يعلم هيبرت في المستقبل أن يبقي فمه مقفلاً. إذ إنه من غير المستحب أن يكون الرجل ثرثاراً. إلا أنه، أي اللورد، كان على ثقة من أن زيلينا قد انهالت عليه بالأسئلة لشعورها بالوحدة ولفضولها لمعرفة ما يجري. وكذلك لوعيها كم سيكون الأمر رهيباً حين يغادر اللورد السفينة. ثم استأنف اللورد الحديث قائلاً: «ما أنوي قوله للسير هنري واتكين ويليامز وبين هو أن وصيفتك التي قررت عمتك إرسالها معك تسممت بالطعام فأصيبت بوعكة صحية شديدة منعتها من السفر، وكذلك الأمر بالنسبة لخادمتها.»

توقف للحظات ثم عاود الكلام ببطء وكأنه يفكر ثم يترجم الفكرة إلى كلمات: «وبما أنه استحال عليها السفر، وللطفك الشديد وطيبة قلبك، فقد تركت خادمتك لترعاها، ليكون عليك عندها السفر وحيدة إلى روسيا.»

نظرت زيلينا إلى اللورد بعينين متسعتين وسألته:

«أتعتقد أن السير هنري... سيصدق هذه... الرواية؟»

«سيصدقني.»

«حسناً... حسناً. وسيكون عليّ سرد الرواية ذاتها... حين أصل إلى... سانت بطرسبورغ.»

«طبعاً. وبما أن أحدنا لا يقبل لامرأة إنكليزية شابة السفر بمفردها إلى ستوكهولم وخصوصاً على متن سفينة روسية، إذاً، سترتب انتقالك برفقتي في اليخت الملكي أسكورا.»

صفقت بكلتا يديها وقالت: «كيف يمكنك أن تكون بهذا اللطف... بهذه الروعة... معي؟ لقد كنت خائفة جداً... جداً... مما قد يجري حين تغادر السفينة.»

ولأنه كان يعرف أنها تفكر بالرجل المدعو آدمسون، قال بحدة: «آنسيه! ولا تخبري أحداً عما جرى بينكما من أمر مهين. إذ إنهم لن يشعروا بالأسى عليك بل سيصدموا لكونك في وضع لا تحسدي عليه، والذي يعكس خلفيتك الاجتماعية.»

هزت زيلينا رأسها موافقة فيما اللورد يتابع حديثه: «حين تصلين إلى سانت بطرسبورغ، عليك أن تظهري للأميرة أنك بمثابة ضيفة تحل عليهم وأن عملك في أي مجال أمر لم يرق لك قط.»

«كيف... لي أن أفعل ذلك؟»

«أولاً، ستشكرينها على دعوتها لك للإقامة، مدعية أنك لطالما وددت زيارة روسيا، لأن احدى قريباتك روسية.»

ثم توقف وسألها: «هل ذكرت لي أن هذا هو سبب تسميتك بزيلينا؟»

هزت رأسها وقالت: «لقد كانت الكونتيسة زيلينا تروبينزوف.»

«أعرف هذه العائلة. ومن هو والدك؟»

«كان والدي برتبة رائد في مؤسسة لايف غاردس التي ترأسها جدي من قبله.»

«ما اسم والدك؟»

«الجنرال السير ادوارد تايفرتون.»

«إن ذلك كان ليروق للقيصر، الذي يثيره أي شيء يتعلق بالعسكرية!»

«ال... قيصر؟»

وتساءلت كيف يمكن أن تكون ذي أهمية للقيصر.

فقال اللورد: «هناك أمر واحد لم أخبرك إياه بعد، وهو أن مضيفك، هو الأمير إيفان فولكونسكي، وهو الأخ الأصغر للأمير بيتر، وصاحب أعلى رتبة في البلاط الملكي. وإن كنت ستحلين ضيفة على الأميرة، ستلتقينه كثيراً بلا أدنى شك.»

جفلت زيلينا لسماعها ذلك، وفي نفس الوقت لم تخفق في الانتباه إلى التشديد الذي بذله اللورد على كلمة «ضيفة.»

ثم استأنف حديثه قائلاً: «بما أنك ضيفة، فإنك بعد وصولك، ستقدمين هدية لمضيفتك. وهذا أمر طبيعي في البلدان الأوروبية دون أن يعتبر ذلك، ومن قبل أي كان، دليل خضوع أو تذلل.»

«ماذا عساي... أقدم لها؟»

«شيئاً بسيطاً وأنيقاً دون أي ادعاء. أنا واثق من أنك ستجدين شيئاً من هذا القبيل بين أغراضك: لنقل وشاحاً، منديلاً حريرياً أو مطرزاً، أو مذراة.»

«أجل، معي شيء من هذا القبيل.» وراحت تتذكر الأشياء

الكثيرة التي اشترتها لها عمتها، والتي هي على يقين تام من أنها لن تستعملها.

«إنها بداية حسنة. وتذكري أن عمك وعمتك هما من ألمع الشخصيات في الوسط البريطاني الأرستقراطي، لذلك عليك أن تتصرفي بنفس الطريقة التي تعتقدين أنهما سيتصرفان بها إن كانا في مكانك.»

ثم قال في نفسه مستهزءاً ان آخر ما يجدر بزيلينا فعله هو التصرف كعمتها، إلا أنه كان يدرك أن زيلينا ما كانت لتعرف كيف تصرفت عمتها لو كانت في مكانها، ووجدت معه على متن السفينة ذاتها.

لم تظهر زيلينا إعجابها به كرجل وسيم وجذاب، أو قامت بأي عمل لتلفت نظره إليها كإمرأة شابة.

كل ما كانت تفعله هو أن تصغي إليه بعينين متسعتين، وتطلب منه ابداء رأيه في بعض الأمور، إلا انها فعلت كل ما بوسعها لتنتزع منه المعلومات.

غير أن كل الأحاديث التي خاضا غمارها هي مواضيع عامة، تماماً كما قد يفعل مع رجل آخر أو إمرأة أكبر منها سناً وتفوقها ذكاءاً قبل أن تثبت وجودها في الوسط الاجتماعي في لندن.

ولاحظ اللورد أن زيلينا كانت تفكر فيما قاله لها اللورد. وبعد مرور قليل من الوقت قالت: «كيف يمكنني أن أشكرك... على لطفك و... تفهمك؟ أنا أعرف الآن ما يجب أن أفعله بالضبط... كل ما أرجوه هو أن يسعفني ذكائي لإنجازه.»

«ستتمكنين من ذلك بالطبع! وهناك أمر آخر أريد أن

أقوله لك يا زيلينا. للروس طبع حاد ومتهور. فإن كنت لا ترغبين بإيجاد نفسك في مواقف محرجة، وربما مخيفة، عليك عدم التواجد منفردة، ومهما كانت الظروف، مع رجل روسي!»

جفلت زيلينا ثانية، فتسمرت في مكانها وحدقت باللورد، ثم قالت: «أتقول... أتعني إنني إن كنت معه لوحدنا... قد يحاول الروسي... أن... كما فعل... ذلك الرجل الحقير؟»

«سيكون هذا تصرف طبيعي بالنسبة إليه.»

«إن ذلك فظيع... مخيف! لقد استيقظت ليلة أمس وأنا أصرخ لأنني حلمت أنك لم تنقذني.»

«عليك بذل كل ما بوسعك كي لا يتكرر ذلك ثانية.»

«لقد ظننت أن ذلك حصل... فقط لأنه رجل... سافل.»

«إن الرجال تتشابه في كافة أنحاء العالم كما سبق وذكرت لك، إن الروس يتصرفون بتهور ولا يمكنهم مقاومة امرأة جميلة.»

ولم يكن يقصد مجاملة زيلينا، لكنه رآها تنظر إليه بتساؤل، فقالت: «سأبذل كل ما بوسعي... كي لا أكون في... موقف كهذا.»

وبدت زيلينا للورد تشارنوك امرأة شابة جداً، لدرجة أنه شعر بأنه قد يفهم ما يفكر به أي رجل ما عدا نفسه، لأنه أراد أن يعدها بالحماية.

وقال في نفسه إنه لدى وصوله إلى سانت بطرسبورغ، سيتحدث إلى السفير البريطاني إيرل دورهام، الذي سيتمكن من تأكيد مكانتها الاجتماعية في انكلترا.

وأحس انه تورط أكثر من اللازم في شؤون هذه الفتاة

المتعبة، وكم غضب لأن ما يحدث هو ما خططت له عمتها كاتلين بالضبط.

فقال في نفسه: اوه، لقد جعلتني كاتلين روثباري بمثابة مخلب القط بالنسبة لها. وإن كنت أتمتع بشيء عن العقل، علي عندئذ أن أترك الفتاة تدبر أمورها بنفسها!

وكان زيلينا شعرت بغضبه، قالت بنبرة مرتجفة: «تبدو لي... غاضب جداً، وأنا واثقة... من انني السبب. إن كان الأمر مزعج إلى هذا الحد... سأتابع رحلتي كما هو مقرر إلى ستوكهولم... وإن أقفلت باب مقصورتي لن يتمكن أحدهم... من النيل مني.»

حاول اللورد جاهداً إخفاء العبوس عن جبينه وقال: «أنا لست غاضباً منك، بل من عمتك. إذ لا يحق لها أن تضعك في مثل هذا الموقف.»

«أنا واثقة من أنها فعلت ذلك عمداً، لكن طالما قال والدي انها... تافهة، ولهذا السبب لم يكن يتوقع منها إنجاز أي أمر.»

فقال اللورد تشارنوك في نفسه انه لا بد وأن يكون ظهور زيلينا قد فاجأ كاتلين روثباري.

«إنها طريقة حسنة في التفكير بالأمر. لكن تذكري ما قلته لك يا زيلينا، لا يجب أن يتكرر ذلك ثانية أبداً. ومهما كانت الظروف، عليك البقاء مع الأميرة أو مع نساء يكبرنك في السن في أي مكان ذهبت إليه. ولا تصدقي نصف المجاملات التي تتلقينها.»

فضحكت زيلينا ضحكة طفولية وقالت: «أشك في أن يتكرر ذلك، إلا انني أظنه أمراً مثيراً، ان تكرر.»

قال بإلحاح: «لا يجب أن يخطر لك هذا.»

«سأحاول. والآن، بعد أن رسمت لي الصورة التي يجب أن أكون عليها، سأتذكر في نفسي فقط أنني إن كنت مربية فقيرة وذليلة، لن يعتبرني أحد.»

وأكد اللورد في نفسه أن ذلك ليس صحيحاً على الإطلاق. دون أن يستطيع تفسير ذلك. ثم تمنى في نفسه أن تعمل زيلينا بنصائحه.

وبينما هو غارق في أفكاره، سمع زيلينا تقول:

«أشكرك... أشكرك كثيراً... لمساعدتك... وشهامتك.»

* * *

وكما توقع اللورد تشارنوك، أزعجه كثيراً القائم بالأعمال البريطاني في كوبنهاغن ما حدث مع قريبة الإيرل وكونتيسة روثباري بسبب سفرها منفردة على متن سفينة بريطانية، وكذلك من ستوكهولم على متن سفينة روسية. قال: «لا يجب أن يحدث ذلك! سأتحدث إلى الجنرال سوكتلين الذي وحسب معلوماتي، ينتظرك على متن الاسكورا.»

«أعتقد أنني التقيت بالجنرال من قبل. فقد كان والده على ما أعتقد السفير السابق لروسيا في ستوكهولم.»

«هذا صحيح. وفيما يتعلق بالجنرال، يمكنني القول انه رجل ذكي، وأعتقد أنك ستستمتع برحلتك عبر البحر البلطيقي.»

«أنا متشوق لذلك.»

توجه نحو الشاطىء مع السيرهنري، أما زيلينا

فقد انتظرت في مقصورتها كما طلب منها أن تفعل.

حيث كانت تنتظر مرتدية سترة جميلة مصنوعة من القماش الفرو، وحقائبها موضبة.

وقد ارتدت زيلينا هذه السترة لأن اللورد أخبرها أن الطقس قد يكون بارداً خلال عبورهم للبحر، وخصوصاً عندما تهب رياح شمالية. لكنها أدركت في نفس الوقت أن شعورها بالبرد سببه الخوف الذي تشعر به، لأنها افترضت أن المعنيين الذين سيتحدث إليهم اللورد قد يرفضون نقلها في اليخت الملكي، فيكون عليها متابعة الرحلة بمفردها، فإذا بإحساس جامح يقول لها إنها أن فقدت الرجل الذي تعتبره مرشدها، سيكون وضعها أسوأ من عدم لقائها به البتة.

فقالت في نفسها بيأس: لقد جعلني أعي كم أجهل من أمور باستثناء ما قرأت عنه في الكتب. لم أكن أعتقد من قبل أن الواقع مختلف إلى هذا الحد.

وبعد ما بدا بالنسبة إليها ساعات، تم إخبارها بأن هناك عربة بانتظارها عند رصيف الميناء.

فهبت لتنفيذ ما قيل لها بسرعة وحماس، لتتذكر قبل مغادرتها بلحظات أنها يجب أن تشكر المضيفة وتكرمها بسخاء، وكذلك أن تودع الضابط وتشكره.

وتفاجأت لرؤيتها الربان بانتظارها عند أعلى السلم، وبعد أن تمنى لها رحلة سعيدة وطلب منها أن تنتبه لنفسها في روسيا، شعرت فجأة بالخوف لإحساسها أنها ستترك خلفها لوقت طويل جداً كل ما هو إنكليزي.

لكنها تذكرت أنها ستمضي ثلاثة أيام برفقة اللورد

تشارنوك. ثم هرعت متوجهة إلى العربة لتجد أغراضها قد أصبحت موضوعة فيها فوق بعضها البعض.

وما كان عليها سوى الانتقال بالعربة لمسافة قصيرة في الميناء حتى تركب الاسكورا، الذي هو عبارة عن يخت فخم وكبير جداً. وما إن تم الترحيب بها من قبل السيرهنري والجنرال سوكتلين، حتى شعرت بتأثر كبير لرؤيتها رفاقها الجدد.

بعد أن أخبرها الجنرال أن سرعة اليخت كبيرة وأن طاقمه مؤلف من ستين رجل، أدركت زيلينا أهميته عندما رُفعت المرساة استعداداً الابحار، ورأت التحية تُلقى بإطلاق عيارات نارية من سلاح المدفعية الرابض على الشاطىء ومن ثم ترد التحية من الأسكورا.

ولم تر زيلينا اللورد تشارنوك إلا عند وقت الغداء، وإلى ان حان ذلك الوقت، كانت زيلينا تستمتع بالمقصورة الجديدة التي ستمضي بها أيام الرحلة الثلاثة.

وكما تم إخبارها لاحقاً، كانت مقصورتها كسائر المقصورات، مجهزة بأثاث مغطى بقماش الستان والجدران مغطاة بالخشب الملون الرائع.

وعندما أخبرها السيرهنري أنه دبر لها وصيفة حال وصولها إلى سانت بطرسبورغ، أدركت كيف وصف اللورد تشارنوك له خلفيتها الاجتماعية. قال: «أخشى أن زوجتي ستنزعج مني لفعلي هذا، يا آنسة تايفرتون. لكن من المهم أن يكون هناك مرافقة لك، ليس فقط لتلبي طلباتك، بل أيضاً لتحرس ممتلكاتك حين تسافرين في سفينة معظم من هم على متنها من الرجال.»

«أرجوك أن تشكر زوجتك شكراً جزيلاً نيابة عني.»

«لقد أخبرني اللورد تشارنوك عن لطفك وتسامحك حين تركت خادمتك في إنكلترا. إلا انني أعتقد أن دايفي، والتي هي امرأة خبيرة، ستبذل كل ما بوسعها لتعمل على راحتك.»

«هذا لطف منك.» ثم شعرت بالحرج حين ذكر «تسامحك.»

تبلغ دايفي من العمر ما يناهز الخمسون عاماً، ويكسو رأسها الشيب، مما يجعلها أشبه بماشطة إنكليزية رائعة.

فقالت زيلينا في نفسها إنها الشخص المثالي لمرافقة فتاة شابة خلال سفرها، وهي على ثقة من أن والدتها كانت لتوافقها الرأي، وكذلك الأمر بالنسبة إلى اللورد تشارنوك.

وكان حديثهما خلال الغداء مثيراً وممتعاً كالذي سبقه لكنه عام وموضوعي.

إضافة إلى الجنرال، كان هناك طبيباً بدا مقيماً على متن اليخت الملكي، وأمين مكتبة كان عائداً إلى سانت بطرسبورغ بعد جولة في أوروبا حيث قام بشراء الكتب للملك.

وبعد أن تحدثت زيلينا إلى أمين المكتبة، اكتشفت أنه يجيد العديد من اللغات، وأنه يتكلم الإنكليزية بطلاقة لدرجة يصعب معها التصديق أنه روسي أصيل.

وبعدما انتهيا من تناول الغداء، قال اللورد تشارنوك لزيلينا: «أريدك أن تصعدي إلى متن اليخت وتلقين نظرة أخيرة على الدانمارك، إذ انك ستجدين المنظر من هنا رائعاً، ويؤسفني أنك لم تتمكني من رؤية المزيد من هذا البلد الجميل.»

لحقت زيلينا به إلى متن اليخت، وبينما كانا ينظران وراءهما إلى الأرض التي غادراها، قال بصوت خفيض:

«هناك أمر نسيت أن أخبرك إياه.»

«ما هو؟»

«كل ما تقولينه في روسيا يُسمع، يُكتب، ويسجل.»

فنظرت إليه بذهول وقالت: «هل تتحدث عن... البوليس السري، الذي لطالما سمعت عنه؟ لكنني شخصية عادية.»

«كل شخص غريب هو شخص مهم بالنسبة إلى أعضاء تلك المنظمة. لذلك لا يجب أن تذكريهم بالإسم.»

«أتعتقد أنهم... قد... يراقبونني؟»

«هذا يتوقف على الأشخاص الذين يتحدثون إليهم.»

«إن ذلك أمر صعب... بالنسبة إلى شخص... مثلك.»

«إن هذا صعب بالنسبة لكل من يزور روسيا، ولذلك تجديني أحذرك وألفت انتباهك. فكري ملياً قبل التحدث في أي موضوع قد يكون مثيراً للجدل، ولا تنتقدي السلطة القائمة أبداً، أبداً.»

فأدركت أنه يتحدث عن القيصر، فقالت بسرعة:

«ساكون حذرة... وشكراً لك لأنك... لفت انتباهي.»

وكأنه شك بأن يكون حديثهما مسموعاً حتى وهما على متن اليخت، أشار اللورد إلى الشاطىء من حيث انطلق اليخت وقال: «أتمنى لو أنك تستطيعين رؤية قصر دروتينغهام. انه مبنى قديم وغريب.»

«لقد سافرت إلى بلاد عديدة، إلا انني نسيت أن أسألك إن كنت قد قمت بزيارة روسيا من قبل.»

«ليس في مهمة رسمية. لكنني حين كنت شاباً، أقمت في

سانت بطرسبورغ مع أقارب القيصر مباشرة بعد توليه العرش، وأقمت خلال زيارتين أخريين مع أصدقاء روسيين في منازلهم الخاصة في أنحاء أخرى من البلد.»

«أتمنى لو أن عندك متسع من الوقت لتحدثني عن ذلك.»

«أنا واثق من أن أمين المكتبة سيرشدك شفهياً إلى كل مكان مشهور في روسيا!»

إلا أنها أدركت أنه كان يمازحها وفي نفس الوقت، أعتقدت أنه لا يرغب في إطلاعها على تجاربه الخاصة في روسيا وأنه يؤنبها ثانية لفضولها الشديد.

أما أمين المكتبة، فقد سره أن يقدم لها عدداً من الكتب لتقرأهم خلال الرحلة. غير أنها وبعد حديثها القصير مع اللورد تشارنوك على متن اليخت، لم تعد تشعر بالوحدة.

تحسن الطقس بشكل ملحوظ، وبعد أن أبحروا على سرعة عالية عبر بحر البلطيك، أبحروا عبر خليج بوثنيا مروراً عبر جزيرة آلاند، ثم رسا اليخت على مدخل خليج فنلندة.

واكتشفت زيلينا أنهم يرسون كلما حل الظلام وينطلقون مع انبلاج ضوء الصباح.

وكانت دايفي قد أخبرتها، عندما تمكنت عبر كوة في اليخت أن ترى أبراج تالين، أنهم الآن على بعد أربع وعشرين ساعة من سانت بطرسبورغ.

تجمع الطاقم الروسي على ظهر اليخت وأخذ جميعهم يهتفون ويغنون على ضوء الشفق القطبي الشمالي آملين في تسلية اللورد ومن معه.

فأيقنت زيلينا أن هذا ما يفعلونه دائماً مع الضيوف

المميزين. ولقد شعرت أن اللورد تشارنوك بدا ضجراً، على عكسها هي، فقد كانت تستمتع بما تشاهده وتسمعه إلى حد يصعب وصفه.

وبينما كانت تجلس على طرف كرسي محدقة بالرجل الذي يغني أمامها لم تكن تعي أن اللورد تشارنوك يراقبها.

كل ما كانت تعيه هو أن الموسيقى التي تسمعها كانت تسعدها كثيراً. أما بالنسبة للورد تشارنوك، فقد أدت مراقبته لزيلينا إلى تثبيت رأيه وإصراره على أنه لا يجب لفتاة شابة وعديمة الخبرة مثلها أن تترك وحيدة بين أشخاص لا يثق بهم أحد. وكان بإمكان اللورد تشارنوك أن يشعر بأنفاسها تخرج من بين شفتيها بسرعة لشدة بهجتها، وأدرك من خلال خبرته أن قلبها كان هو أيضاً يرقص من شدة الفرح.

فقال في نفسه دون التأكد من قدرته على القيام بشيء حيال ذلك: يجب أن تعود تلك الطفلة إلى إنكلترا على متن أول سفينة!

بعد انتهاء الغناء، ظلت زيلينا تصفق بيديها إلى أن احمرتا وقالت بمرح شديد: «كان هذا رائعاً! تجربة لم أكن أتوقعها!»

«ستعتادين على ذلك. إذا أن الشعب الروسي يغني دون توقف لكثرة مآسيه وقلة أفراحه، وكذلك الأمر بالنسبة لسماع الموسيقى. فكأنه يقوم بذلك لينسى وضعه الحالي.»

فأدركت أنه يحاول تخفيف حماسها، فابتسمت وقالت: «إن الأمر جديد بالنسبة إلي. وقد تمكنت بصعوبة كبيرة أن أمنع نفسي من مشاركتهم الفرحة.»

فقال اللورد في نفسه انها لو فعلت ذلك، لقدر الروس مشاركتها لهم، إلا أنه قال محاولاً إحباطها: «لا يجدر بك منافستهم وهم الخبراء في هذا.»

وبعد أن تركتها دايفي في مقصورتها وحيدة، وجدت زيلينا صدرها ينضح بالأحاسيس التي خلفتها الموسيقى. فقالت في نفسها: إن كان ذلك يلخص كل شيء عن روسيا، فأنا أرحب بإقامتي هناك!

لكنها تذكرت ما قرأته في الكتب عن أفعال الروس الشنيعة في بولندا، فإذا بها تشعر بقشعريرة تتسلل إلى داخلها.

وللمرة الأولى منذ رحيلها عن إنكلترا، تمنت ألا تعود إلا عندما تعرف المزيد والمزيد كتابة وواقعاً عن روسيا.

الفصل الرابع

قال اللورد في نفسه بينما كان يجول بنظره على قاعة الاستقبال الفخمة في السفارة البريطانية، قال انه رجل ذكي، اذ ان دعوة ايرل دورهام للأمير ايفان والأميرة اولغا فولكونسكي تتضمن دعوة زيلينا، تثبت ان هذه الأخيرة استطاعت ان تؤكد حضورها الى روسيا منفردة كزائرة وليس كموظفة.

عرف هيبرت الذي يعمل بمثابة مخبر لسيده اللورد، عرف من الخدم ان زيلينا تتناول الطعام مع مضيفها ومضيفتها، وانهما قدماها إلى العائلة المالكة.

لذلك تعمد اللورد تشارنوك الابتعاد عن طريق زيلينا، وعمل الا يكون موجوداً في مناسبات معينة تحضرها زيلينا.

ومرد فعله هذا انه في حال لاحظ احدهم انه يهتم لامرها، فان سفرها معه على متن اليخت سيكون حديث الثرثارين في سانت بطرسبورغ، والذين يفترضون دائماً «الأسوأ» فيما يخص المرأة، خصوصاً ان كانت رائعة الجمال.

وعندما رأى زيلينا تتحدث مع احد اتباع القيصر، قال في نفسه انه لا يمكن ان يكون هناك شخص يمثل الفتاة الانكليزية التقليدية كما تفعل زيلينا.

وقد لاحظ اللورد تشارنوك أن زيلينا تحافظ على حد معين في حديثها مع هذا الرجل، رغم أنه كان يتحدث اليها

www.liilas.com

بطريقة ودية ويرمقها بنظرات تسببت بظهور العبوس على جبينه.

فقال في نفسه: ان هذه الفتاة لا تزال صغيرة على مثل ذلك.

لكنه في نفس الوقت، كان يدرك أن وضعها، رغم عدم ادراكها لذلك، كان دقيقاً جداً وخطر لو تم تقديمها على أنها لا شيء سوى مربية لاطفال الأميرة.

ولأنه يتمتع ببعد نظر، فقد شعر بقلق زيلينا حين ودعته قبل مغادرتها اليخت الملكي بعد وصولهما إلى سانت بطرسبورغ.

حيث كان هناك عدد من الرسميين البارزين بانتظار اللورد تشارنوك، وترك أمر تقديم وشرح سبب وجود زيلينا على متن الاسكورا للجنرال سوكتلين.

وبعد أن التقى بايرل دورهام على انفراد، عبر عن انزعاجه من العبء الذي اثقل كاهله حين اضطر للاهتمام بفتاة شابة تسافر على متن سفينة انكليزية دون وصيفة أو حتى ماشطة ترافقها.

ثم أضاف أنه لم يكن من الممكن أن يتركها تتابع رحلتها الى ستوكهولم على متن السفينة ذاتها منفردة، قال: «لقد ذعر السيرهنري واتكين ويليامز وين لمجرد سماعه الفكرة!»

فقال ايرل دورهام: «ما كان أمامك خيار آخر سوى أن ترافقك على متن الاسكورا.»

«أريدك أن تبلغ السفير الروسي في لندن بطريقة ما أن الترتيبات التي قاموا بها لم تكن تليق باحدى أقارب ايرل وكونتيسة روثباري.»

«سأفعل ذلك بالتأكيد، لكنك تعلم، تماماً كما أعلم أنا، أن الروس لايتوانوا عن «لخبطة» الأمور ان كان ذلك ممكناً.»

وقد كان اللورد تشارنوك وهو على ثقة من أن الايرل سيروق له اثبات حقه على الروس فيما يتعلق بزيلينا.

إلا أنه كان معروفاً لدى الجميع أن إخلاصه، شخصيته، وكفاءته، كل ذلك كان ينفي غروره وحبه للاطراء. ورغم ذكائه الشديد، إلا أن هذا على الدوام هو نقطة ضعفه.

أوصلت عربة السفارة البريطانية زيلينا ودايفي المرافقة لها إلى قصر آل فولكونسكي.

وكان من المفترض أن تمكث دايفي معها لبضعة أيام ومن ثم تعود إلى كوينهاغن على متن أول سفينة تغادر سانت بطرسبورغ.

شعرت زيلينا بارتياح شديد لوجود دايفي معها، لأنها ستساعدها في الدور الذي ستلعبه وتؤمن لها المساعدة اللازمة رغم يقينها من أن ما ستفعله هو أصعب من أي عمل قامت به من قبل.

ورغم كل شيء، تحرك كبرياؤها التي لم تكن تعلم بقوته في داخلها، وجعلها ترفع رأسها شموخاً وأنفة.

ما أن عتبت قصر فولكونسكي وذكرت اسمها لقهرمان القصر، حتى تأكدت من أنه لاحظ وصولها في عربة تحمل شعار النبالة الانكليزي. ثم نظر إلى دايفي بشيء من الدهشة، وقال بلكنة فرنسية ركيكة: «سيلتقيك الأمير، يا آنستي، قبل صعودك إلى الطابق العلوي.»

حنت زيلينا رأسها شاكرة له، ثم رفعت رأسها بشموخ وتعمدت المشي ببطء خلف القهرمان.

عبر الاثنان ردهة أنيقة يظهر على جوانبها الذهب والكريستال، والتي علمت زيلينا لاحقاً أنه أحد الصالونات الصغيرة.

وقد بدا لها على الرغم من ذلك كبيراً جداً، وتزين جدرانه لوحات رائعة لكبار الرسامين.

كانت الأزهار منتشرة في كل مكان، ورائحتها تعبق في أنحاء المكان، وعند الطرف الآخر من «الصالون الصغير» كما يسمونه، رأت رجلاً وسيما يجلس على أريكة ويظهر عند قدمه كلب ذئبي، فأعلنت في نفسها أنه مضيفها.

وكانت تتحدث إليه سيدة وهي واقفة يشعر من يراها وكأنها إحدى شخصيات اللوحات المعلقة على الجدران.

فالأميرة اولغا، بعينيها السوداوين الكبيرتين وشعرها القاتم اللون ووجهها البيضاوي تمثل الجمال الروسي بحسب المقاييس الأوروبية الغربية.

وما أن أعلن القهرمان: «الآنسة زيلينا تايفرتون!»

حتى لاحظت بريق المفاجأة يتراقص في عيني الأمير والأميرة بينما كانت تتقدم نحوهما، وهي ترتدي أجمل ما لديها، الثوب الذي اشترته لها عمتها لترتديه في فترة بعد الظهر.

وقد كانت تتوقع زيلينا ان ترتديه عند مرافقتها لعمتها إلى إحدى حفلات الإستقبال التي تدعى إليها. كتلك التي يقيمها حزب الويغ المؤيد للسلطة القائمة.

إلا أن عمتها لم تصطحبها معها، فقالت زيلينا إن الوقت مناسب كي ترتديه، لأنه بالطبع ثوب لا ترتديه مربية، وكذلك

الأمر بالنسبة إلى القبعة التي تعلوها ريشات صغيرة زهرية اللون وكشكش مزركش على الأطراف.

فتقدمت نحوهما ببطء إلى أن أصبحت على مسافة محددة ومدروسة من الأميرة، توقفت زيلينا والقت التحية، ثم ابتسمت وقال بشيء من الحماس: «لقد وصلت قبل الوقت المحدد، لكن مرد ذلك إلى عدد من المشاكل العابرة، ويسرني جداً زيارتي لكم، وكم هو لطف منك أن تقومي بدعوتي.»

فقالت الأميرة بلكنة انكليزية ممتازة: «لقد فاجأتنا بقدومك، يا آنسة تايفرتون.»

ثم وقف الأمير، ومد يده مصافحاً قال: «مرحبا بك في روسيا! يؤسفني سماع أن رحلتك لم تكن مريحة.»

«الأمر ليس كذلك بالضبط، يا سيدي. في الحقيقة ان الاسكورا هو واحد من أجمل اليخوت التي رأيتها في حياتي كلها!»

«الاسكورا!»

فضحكت زيلينا بعفوية وقالت: «لهذا السبب وصلت قبل الموعد المحدد، وعلي ان اخبر حضرتك أن مرافقتي هي ليست وصيفتي الأصلية، لأنني تركت هذه الأخيرة في لندن بسبب وعكة صحية، وأن هذه الماشطة تخص الليدي واتكين ويليامز وين في كوبنهاغن.»

تأكدت زيلينا بعد أن أوضحت جميع الأمور للأمير والأميرة، من أنهما اعتبراها ضيفة في قصرهما، لأنهما لم يأتيا على ذكر الأولاد.

كذلك الأمر عندما حان وقت الغداء وظهر بالاضافة إلى

الأمير والأميرة عدد من الضيوف، ولم يطلب من زيلينا الانضمام إلى الأولاد وتناول الغداء معهم في قاعة الدرس مع مرافقين آخرين، وعزت زيلينا عدم فعلهما لذلك إلى ذكاء اللورد تشارنوك.

وفي وقت لاحق من اليوم ذاته، حين حضر الأولاد لتمضية ساعة مع والدتهم قبل أن يذهب أصغرهم إلى النوم، اكتشفت زيلينا أن هناك خمسة اولاد تتراوح أعمارهم بين الثلاث سنوات والأربعة عشر وأكبرهم فتاة جذابة جداً.

ولهؤلاء الأولاد مربية انكليزية وأخرى فرنسية، استاذ موسيقى، وللصبيان تحديداً هناك أستاذان خصوصيان ومختصون باللغتين اليونانية واللاتينية، اضافة الى معلما فروسية.

فقالت زيلينا بعد تعرفها إليهم: «ان أولادك يتمتعون بثقافة عالية.»

«أتمنى أن تكون لغتهم الانكليزية جيدة. لقد اكتسبوها بالطبع من مربيتهم، الا انني اعتقد، وعلى الرغم من أنها سيدة ممتازة، اعتقد أنه لا يمكنني أن اقول عنها انسانة مثقفة.»

ثم عم الصمت للحظات، وأدركت زيلينا أن الأميرة تتوقع منها أن تفصح عن إمكانية تعليم اولادها اللغة الانكليزية، لكنها بعد أن تذكرت نصيحة اللورد تشارنوك، قالت: «أنا واثقة من أنهم سيكتسبونها منك، يا سيدتي، كونك تجيدينها اجادة تامة، وانهم لن يقترفوا اخطاءاً يصعب تصحيحها.»

فشعرت أن الأميرة تود اقتراح أمر ما، فقالت مستدركة: «آه، كم أتمنى لو أن والدي رأى هذه التحف الرائعة في هذا

القصر! فعندما كان جنديا، كان يقدر الفن، ولأننا كنا على علاقة وطيدة، تجديني ملمة قليلاً بفن الرسم، والذي ستزداد معرفتي عنه خلال وجودي في روسيا.»

«هل كان والدك منتسباً للجيش؟»

فبدا لزيلينا هذا الحديث مدخلاً جيداً لتخبر الأميرة عن جدها وعن بعض اللوحات التي يملكها عمها ايرل روثباري.

وكما هو حال اللورد تشارنوك، كانت زيلينا أيضاً تعي أن تلقيها الدعوة من السفارة الانكليزية إلى حفلة عشاء، محت من ذهن الأمير والأميرة أي امكانية لأن تكون مدرّسة لغة انكليزية لأولادهم.

وعندما التقى الجميع على مائدة الغداء، قدمت زيلينا هدية للأميرة عملاً بنصيحة اللورد تشارنوك، والهدية عبارة عن مروحة موضوعة في علبة مكسوة بالساتان الأبيض وتحمل اسم محل معروف في شارع بوند حيث اشترتها لها عمتها.

لقد وجدت زيلينا ثلاثة مراوح متشابهة في صندوق الثياب الذي افرغته دايفي.

ولأنها لم تمتلك أشياء ثمينة الا قليلاً، ودت زيلينا لو أنها تحتفظ بالمراوح الثلاث.

وأيا يكن، لفّت دايفي الهدية بطريقة انيقة وزينتها بشريط من الساتان هو في الأصل حزام لاحد أثواب زيلينا.

أعجبت الهدية الأميرة كثيراً، حتى أنها هتفت قائلة: «كم هي جميلة، آنسة يا تايفرتون!»

ثم نظرت إلى المروحة وأضافت مبتسمة: «لن أخاطبك

بطريقة رسمية. زيلينا هو اسم جميل وروسي، رغم أن هيأتك انكليزية ولن تكون أبداً غير ذلك.»

وقد وافق الأميرة رأيها، الشاب الذي كان يجلس إلى جانبها على مائدة الطعام حيث قال: «أعلم أنك انكليزية، وانك أتيت من انكلترا موطن النساء الجميلات. أخبريني عن نفسك.»

تذكرت زيلينا مجدداً أنه عليها ان تترك انطباعاً قوياً لدى الروس، وبعد طلب العديد من ضيوف الأميرة رؤية زيلينا مجدداً، ادركت أنها نجحت في مهمتها.

عندما صعدت إلى الطابق العلوي لترتدي ثياب المساء، أخبرتها دايفي أنه ولوصولهما قبل الوقت المحدد، أرسلت الأميرة أحد الخدم لدعوة رجل نبيل لتناول العشاء معهم.

وأضافت دايفي: «لقد تسبب وصولك قبل الوقت المحدد باسبوع على متن اليخت الملكي بلخبطة في الترتيبات!»

«أنا مسرورة جداً لأنه لم يكن علي الذهاب إلى ستوكهولم على متن السفينة الانكليزية ومن ثم الانتقال إلى سفينة روسية.» وعاد إلى ذاكرتها ما عانته، أضافت: «وأنا محظوظة لأنك برفقتي وتهتمين بشؤوني. ما عساي ارتدي لهذا المساء؟»

لقد استغرق اختيارهما للملابس بعض الوقت، لاعتقاد زيلينا أن الانطباع الأول مهم، هذا دون اعتبارها، وحسب تعليمات اللورد تشارنوك، لا تزال في مرحلة تكوين ذاتها.

وتمنت بعد أن انتهت من ارتداء ملابسها لو أنها تستطيع اخبار اللورد ان خطته تسير على خير ما يرام، وانه بعد هذه الليلة ستتوضح للجميع مكانتها في القصر.

لأن اللورد حذرها خلال وجودهما على متن الاسكورا، ولأنها اعتقدت ان الروس قد يتنصتون على ما تقوله، وبكل تأكيد يقرأون ما تكتبه، لم تكتب رسالة شكر إلى اللورد، الأمر الذي تتوق للقيام به لكنها قالت في نفسها: لا بد انه يعلم كم أنا ممتنة له.

وفي نفس الوقت لامت نفسها لعدم ابداء ذلك له بوضوح. ثم أكدت في نفسها قائلة: أتمنى أن أتمكن من قول ذلك له.

نزلت إلى الطابق السفلي ودخلت الصالون حيث كانت الأميرة تستقبل ضيوفها قبل العشاء وهي ترتدي اجمل ثوب لديها وأكثرهم أناقة، اشترته لها عمتها من شارع بوند، وفي داخلها احساس كبير أن أناقتها ستضاهي أناقة السيدات الروسيات اللواتي يتبضعن من باريس.

في الليلة التالية ولعلمها أن اللورد تشارنوك سيكون موجوداً في السفارة البريطانية، ارتدت زيلينا أحب الاثواب إلى نفسها.

فقد قالت في نفسها حين اشترته لها عمتها أنها لن ترتديه الا اذا تلقت دعوة إلى حفلة في قصر باكينغهام.

وبينما كانت تتحضر، قالت انها قد تثير اعجاب اللورد تشارنوك أكثر من الملكة ايلاييد ذاتها، رغم خوفها من عدم حدوث ذلك.

فهي لم تنس ما قالته الأميرة عنه للسيدات اللواتي تناولن الغداء برفقتهن ظهر امس.

سألت احداهما الأميرة: «أعتقد أنك ستحضرين إلى السفارة البريطانية مساء غد؟»

«أجل، بكل تأكيد.»

«أتوقع أن يكون اللورد تشارنوك ضيف السفير رغم إقامته في القصر مع الامبراطور.»

قال الأمير: «بالطبع سيكون اللورد تشارنوك هناك! وأنا أتوق لتجديد علاقتي به، فقد رأيته للمرة الأخيرة في باريس.»

فضحكت السيدة التي كان يخاطبها، ثم قالت: «انه يقيم في القصر. لقد بلغني أنه متورط في علاقة مع الجذابة صوفي.»

قالت الأميرة: «ما كانت صوفي لتسمح له ان يكون غير ذلك!» ثم ضحك الجميع.

انضمت امرأة أخرى إلى المتحدثين وقالت: «أعتقد ورغم كل شيء، ان علاقتهما انتهت الا ان علاقات سيادة اللورد لا تدوم لوقت طويل، لدرجة أن احدهم قال انها ما أن تبدأ حتى تنتهي.»

قالت الأميرة: «لم أسمع بمثل هذه القصة من قبل. وأقول لكم أن هؤلاء الرجال الانكليزيون الهادئون والرابطو الجأش هم في معظم الأحيان محبون رقيقون.»

فقالت احدى السيدات بنبرة حانقة: «يجدر بك أن تعلمي، يا عزيزتي...»

لكن الأميرة تداركت الأمر وغيرت الموضوع بلباقة فائقة ولشد ما كانت دهشة زيلينا مما سمعته. فهي لم تفكر باللورد تشارنوك على أنه محب رقيق، وخطر لها حينئذ ان يكون اللورد قد وجدها عادية وبريئة.

إلا أنها أكدت في نفسها أن الأميرة وصديقاتها لسن على

صواب، لأنه غارق في العمل إلى حد لا يسمح له بالتورط في أي أمور أخرى.

ومع ذلك، تساءلت زيلينا حين رأته في السفارة البريطانية خلال الحفل ان كان مغرماً بالسيدة الجميلة التي كان يتحدث إليها.

وشكت في أن تكون هذه السيدة مرسلة إلى اللورد تشارنوك من قبل البوليس السري وبموافقة القيصر.

فالمعلومات التي طلبت منها هي أن تعلم سبب زيارة اللورد تشارنوك إلى سانت بطرسبورغ وان كان ممكناً أن تعرف موقف وزير الخارجية الانكليزية تجاه روسيا.

ومن المؤكد أنه كان هناك سراً يحاول القيصر اخفاءه عن الانكليز، ورغم شكه في أن يكونوا على علم بذلك، أمر باجراء تحقيق دقيق وكامل عن اللورد تشارنوك.

ما لم يكن يعيه القيصر هو أنه ورغم ثقته بنفسه على تحويل الأمور الى ما يريده في كل موضوع يخوضه، وكذلك على المراوغة وخداع خصومه، لم يكن يعي أن اللورد تشارنوك نده.

لكن اللورد تشيرنوك، ومن اللحظة الأولى له على متن الاسكورا، كان واثقاً من أن الجنرال سوكتلين تعمد الحديث عن كل شيء دون أي تحفظ كي يسجل لاحقاً تعليق اللورد حول كل شيء وينقله إلى القيصر.

كذلك كان اللورد واثقاً، من اللحظة الأولى التي تعرف خلالها إلى الكونتيسة ناتاشا أوبلانسكي، أنه قد تم اختيارها لأخذ المعلومات منه بأي وسيلة ممكنة.

فهي جذابة جداً، وفي كل كلمة تقولها شيء من التحدي،

اضافة إلى أنها كانت تتحادث مع اللورد تشارنوك، إلا أنها وفي الوقت ذاته، كانت تحرص على مراوغته.

وقد تجادلا قليلاً خلال العشاء، وعندما طلب إليه القيصر التحدث على انفراد، لاحظ اللورد أن الكونتيسة لم تحاول أن تتحدث إلى أي من الضيوف، بل انتظرته وحسب.

وكانت الليلة الأولى التي أمضاها اللورد تشارنوك في القصر هادئة تماماً.

وشعر بالارتياح حين صعد إلى غرفته الفخمة ليجد هيبرت يقوم بأخذ الاحتياطات اللازمة التي يقومون بها في كل بلد يزورونه.

ودون أن يتلفظ مساعد اللورد بأية كلمة، نقر على احدى الألواح التي تزين الجدار، فإذا به يفتح بواسطة مفتاح سري. واكتشف اللورد أن الجدار خلف اللوح كان أجوفاً ليتسنى لمن يشغل الغرفة المجاورة لغرفته أن يسمع كل ما يقوله اللورد وبكل وضوح.

لكن هذا أمراً صادفه اللورد من قبل، لذلك قام هيبرت بدس وسادة الريش التي كانت موضوعة على سرير اللورد والتي لا يحب أن ينام عليها، أخذها هيبرت ودسها في الفجوة ليصبح صعباً على أي كان الدخول عبرها أو التصنت على ما يقال.

وأكد هيبرت انه ما من شيء مريب، آخر في الغرفة، لكنه اشار إلى السقف، فإذا باللورد تشارنوك يرى قطعة ورقية موضوعة فوق عين صورة مرسومة على السقف.

ودون أن ينفوه بأية كلمة نظر اللورد تشارنوك إلى

هيبرت مهنئاً، ولم يتحدثا فيما كان اللورد يبدل ثيابه الا عند الضرورة.

بدا اللورد ببذلته المسائية وأوسمته العديدة التي نالها تزين سترته وربطة العنق البيضاء، بدا مضاهياً لأكثر الرجال أناقة في البلاط الروسي.

ثم توجه بعد ذلك إلى حيث سيتناول العشاء مع القيصر. كان الطعام شهياً، والحديث مثير ومحنك.

وخلال السهرة، تلقى اللورد دعوة أخرى إلى حفل موسيقي الا أنه اعتذر مدعياً التعب بسبب رحلته الطويلة، ثم توجه الى غرفته حيث كان هيبرت بانتظاره.

مجدداً، ودون أن يتلفظ بأية كلمة، أشار إلى حقائب اللورد التي قد تم إزاحتها قليلاً عن الوضع الذي تركاها عليه.

وايماءة أخرى من هيبرت دلت أنه قد تم تفتيش كل الغرفة، الأدراج فتحت، وكل ما هو مكتوب تمت قراءته.

ولأن اللورد كان يتوقع هذا الأمر، لم يشعر بأي انزعاج، حتى انه نام باستغراق عميق.

استيقظ اللورد في صباح اليوم التالي يملؤه العزم، والقوة على مواجهة اليوم، مذكراً نفسه أنه عليه توخي الحذر في كل كلمة يقولها، حتى أنه عليه السيطرة على تعابيره التي قد تظهر في عينيه كي لا تكشف عما يدور في ذهنه.

ولم يفاجأ ان مقعد الكونتيسة ناتاشا كان محدداً إلى جانبه على الغداء، ومن ثم على العشاء.

الا ان حفلة المساء كانت تختلف عن حفلة الليلة السابقة، إضافة إلى أنها على نطاق أوسع.

فقد ظهرت النساء بأناقة تامة، ومما زاد في إشراقهن بريق المجوهرات التي كن يضعها حول أعناقهن وفي ايديهن. وبعد انتهاء العشاء، وصل عدد اضافي من الضيوف الذين اتوا من القصور المجاورة، وجلسوا في احدى أفخم الصالونات التي تزينها اعمدة من الذهب التي ان دل وجودها على شيء، فهو يدل على البذخ الذي يميز كل شيء وكل شخص في الامبراطورية الروسية.

قالت الكونتيسة بنبرة هادئة: «تبدو وسيماً، يا عزيزي!»

«شكراً لك، وبما انك تعلمين كم أنت جميلة، لا أجد من داع لتكرار ذلك.»

«لكنني أريد أن أسمعك تقول ذلك، وأريد أن أشعر بان ذلك نابع من قلبك.»

رد بفظاظة: «طالما قالوا لي أن لا قلب لدي.»

«أنا واثقة من أن ذلك غير صحيح، ويجب أن تترك أمر اكتشافه لي، الأمر الذي أجده مسلياً جداً.»

«لكنه قد يكون هماً فيما يتعلق بي.»

«سيتغير الأمر معك تدريجياً وستشعر بالسعادة. هلا نبدأ بالاسئلة لمحاولة ايجاد قلبك.»

ولأنه لم يخطر له ما قد يقوله رداً على هذا السؤال، ابتسم بطريقة مبهمة دون أن يتفوه بأية كلمة.

انتهت الحفلة في وقت متأخر من الليل، وتأخر الوقت أكثر قبل أن يأوي اللورد إلى فراشه.

وقبل أن يأوي إلى الفراش، وقف أمام النافذة يتأمل

المشهد الخارجي حيث تتلألأ أنوار الأبنية، وتتراقص انعكاسات النجوم على صفحة الماء.

وتساءل ان كان هيبرت قد سد كل منفذ سري إلى الغرفة، بعد أن سد الفجوة بين الجدارين.

لكن اللورد تلقى الاجابة عن سؤاله بسرعة، حين ظهرت الكونتيسة ناتاشا من فتحة وراء لوحة أخرى.

فخطر له انه لو طلب منها مغادرة الغرفة، سيثير حنق البوليس السري، وكذلك فانه قد يدمر سمعة ناتاشا لكنها المخبرة الأمهر في البلاط الروسي.

ثم أخذت تتحرك نحو اللورد ببطء، وقالت: «لم تتمنَّ لي ليلة سعيدة.»

قال في نفسه بشيء من السخرية ان ذلك جزء من اللعبة وسيكون من المؤسف ان يظهر لخصمه بهذه السرعة انه كشف أمره، وأن تصرفها هذا عفوياً ولا علاقة لها بالبوليس السري او غيره.

• • •

عندما رأى اللورد تشارنوك زيلينا في السفارة الانكليزية، أدرك أنها قد نجحت في اثبات وجودها ومكانتها بين الأسرة التي تقيم معها.

وأدرك ما قد حدث دون أن يسمع أي كلام من زيلينا، التي كانت ترتدي ثوباً يدل على ان ظهورها في سهرة هو أول ظهور اجتماعي لها.

ثم شعر مع مرور الوقت خلال الأمسية، سواء اعجبه ذلك أم لا، ان زيلينا تتمنى مرافقته.

الا انه قاوم ذلك في بادىء الأمر، ثم قال في نفسه ان أي رجل في مركزه يتشرف بدعوة سيدة تحمل نفس الجنسية الى رفقته بعد التعرف إلى هويتها ومكانتها الاجتماعية، على اعتبار انها وحيدة في أرض غريبة.

بعد أن فقدت زيلينا الأمل في حصول ذلك، توجه اللورد الى حيث تجلس زيلينا قرب الأميرة وقال: «ليس هناك من ضرورة لأسألك ان كنت تستمعين بوقتك، فأنا أرى أن مضيفتك مضيافة جداً، تماماً كما يتوقع من أي شخص بهذا السخاء والجاذبية.»

ثم التفت إلى الأميرة وقال: «أشكر لك حسن معاملتك ولطفك مع مواطنتي زيلينا.»

«لقد بلغني ما عانته هذه الصغيرة خلال رحلتها إلى هنا.»

«ما حدث هو سلسلة من المشاكل، لكن السير هنري واتكين ويليامز وين أثبت أنه صديق رائع، فهو لم يوْعَن للآنسة تايفرتون يختاً ملكياً لينقلها إلى هنا، بل أمّن لها أيضاً ماشطة ترافقها.»

«لطالما كان هذا رأيي به، ورأيي بك أيضاً، يا سيدي اللورد.»

«أنت تجاملينني!»

ثم أتى أحدهم ليتحدث إلى الأميرة، فالتفت إلى زيلينا وقال: «هل لي أن أتشرف بمرافقتك؟»

عندما وقفت، أدرك اللورد من عينيها مدى لهفتها لتكون معه.

وعندما أصبحا بعيدين عن مسامع الأميرة، قالت زيلينا

بهمس: «أنت ذكي جداً! لقد جرى كل شيء تماماً كما خططت له.»

«يسرني سماع هذا.»

«لطالما رغبت في أن أكتب أليك لاعبر لك عن مدى امتناني، لكنني لم أجد ذلك عملاً صائباً.»

«انه كذلك بالتأكيد!»

«لا يسعني إلا أن أقول لك، شكراً! أتمنى لو أجد كلمات أخرى تعبر عما أريد قوله.»

«يسرني أن كل شيء يسير على ما يرام. أما الآن، استمتعي بوقتك.»

«لقد كان الجميع في غاية اللطف معي، وأحاول الا أفكر بالأمور التي... واجهتني قبل... وصولي الى هنا.»

«كم أنت حساسة.»

«لن تغادر قبل أن تقول لي... دون أن تودعني.»

«لم يحن الوقت بعد لاغادر.»

فأدرك من التعابير التي علت وجهها كم كانت مسرورة لسماعها كلماته هذه، وأدرك أموراً أخرى حين نظر في عينيها بينما كانت تقول له: «أنا لا أراك باستمرار... لكن ما يشعرني بالارتياح... هو وجودك هنا... في نفس المدينة... اذ في حال حصل... أي مكروه... قد اتحدث اليك.»

قال بحسم: «لن يحصل أي مكروه، وعليك أن تتوقفي عن الاحساس بالخوف. فكري فقط أن معظم من هم في مثل عمرك من الفتيات يفكرن في الاستمتاع بوقتهن وحسب، وابدأي كل يوم بهذه النية.»

«سأحاول، وسأتذكر... كل ما قلته لي.»

«إذن لن يزعجك شيء.»

خلال توجههما نحو الأميرة، سمع اللورد أحدهم يقول له: «مساء الخير، سيدي اللورد! تسرني رؤيتك ثانية!»

وما ان استدار اللورد، حتى رأى الأمير ستوغانوف يمد له يده ليصافحه.

لقد التقى اللورد بالأمير مرات عدة في باريس ومرة أو اثنتين في لندن، لكنه كان شخصاً لا يحبه اللورد كثيراً.

إذ أن الأمير كان رجلاً شديد الثراء ومن ألمع الشخصيات وأهمها في البلاط.

قال الأمير: «لقد بلغني وصولك، وكذلك بلغني انه قد رافقتك زهرة انكليزية جميلة، أزهرت لوجودها بساتيننا من الحسد!»

ثم أخذ ينظر إلى زيلينا متجاهلاً تأكيد اللورد انه لم يرافقها شخصياً إلى روسيا، قال: «أرجوك، عرّفني إليها إذ صعب عليّ أن انتظر اكثر من كل هذا الوقت!»

فلم يكن في وسع اللورد تشارنوك سوى أن يقول: «الآنسة زيلينا تايفرتون، الأمير اليكسيس ستوغانوف!»

حنت زيلينا رأسها محيية وتقدم الأمير قائلاً: «لا أصدق سوى أنك فتاة أحلامي، وفي حال كنت حقيقة، لن أحلم ثانية، لأنه ما من فتاة ستضاهي جمالك!»

أطلقت زيلينا ضحكة خفيفة، فسألها الأمير: «لماذا تضحكين؟»

«لأنك تبدو لي تماماً كما الشخصيات التي أقرأ عنها في

الكتب، إذ لم يخطر لي يوماً أن هناك من يتكلم بهذه الطريقة!»

قال اللورد تشارنوك في نفسه برضى ان رد زيلينا هو ما لم يتمنَّ الأمير سماعه قط، الا انه قال: «ان كنت ستعاملينني بهذا اللؤم، سأغرق عندئذ في يأس شديد وكآبة يصعب الشفاء منهما.»

فضحكت زيلينا ثانية وقالت: «لقد اخبرتني الأميرة أن أكثر ما يفضل القيصر قراءته هو كتب السير والترسكوت، الا انني اعتقد ان سموك دراماتيكي أكثر من ليفانهو!»

«أنت رائعة!»

فتدخل اللورد تشارنوك قائلاً: «أعتقد أنه علي أن أصطحبك مجدداً إلى الأميرة.»

فقال بانفعال: «لا تتركيني!»

«ربما في وقت لاحق، أيها الأمير، أعتقد أنه يجدر بي الآن... وكما اقترح حضرة اللورد، ان انضم مجدداً الى الأميرة.»

ثم حيته وابتعدت مسرعة قبل ان يتفوه الأمير بأية كلمة.

كانت تعلم، دون أن يخبرها اللورد تشارنوك، ان تصرفها هذا قد اسعده. وخلال توجههما نحو الأميرة، قال بصوت خفيض: «احذري ذلك الرجل! لا تقتربي منه!»

هزت زيلينا رأسها موافقة، وعندما أصبحا قرب الأميرة، قال اللورد تشارنوك: «ها قد أعدت زيلينا اليك، وقد اخبرتني كم تستمتع بوقتها. أنا واثق من ان عمتها وعمها سيكونا مسرورين جداً للطفكما معها.»

«يسرني وجود فتاة شابة ومتحمسة مثلها معنا. آمل، يا سيدي اللورد، ان تخصص لنا بعض الوقت لنتناول العشاء معاً خلال الأيام القليلة المقبلة.»

«يسعدني ذلك!»

انحنى للأميرة محيياً ثم ابتعد دون أن ينظر إلى زيلينا. وبعد مغادرته، قالت زيلينا في نفسها انه ما من أحد في القاعة يضاهيه بأخلاقه، وتمنت لو أن رفقتها له لم تنته قط.»

وفيما هي تجول بنظرها على الموجودين، رأت السيدة الجميلة التي كان يتحدث اليها في بداية الأمسية، رأتها تقترب منه ثانية فخالجها احساس غريب لم تميزه على انه غيرة. وتساءلت في نفسها: ماذا تعني له هذه السيدة الروسية؟ ومن هي؟

ولأنها خجلت من أن تسأل الأميرة، انتظرت الى ان كانت تتحدث إلى شاب كان يجلس الى قربها خلال تناولهم العشاء، فسألته: «من هي تلك السيدة الجميلة التي تتحدث إلى اللورد تشارنوك؟»

فنظر الشاب الى حيث تنظر زيلينا وأجاب قائلاً: «انها الكونتيسة ناتاشا اوبلانسكي.»

«انها فاتنة جداً!»

«الجميع يقول هذا، فقد حطمت قلوب أكثر من أي سيدة أخرى في العالم!»

«حطمت... الكثير من... القلوب؟»

«أجل، بالطبع فقد مات رجلان ولا يمكن لاحد أن يحصي عدد المبارزات التي قامت على شرفها!»

«هل هي... عزباء؟»

فضحك الشاب وقال: «لا، بالطبع لا، انها زوجة إلى أحد رجال الدولة المهمين، لكنه موجود خلال هذه الفترة في الجنوب.»

شعرت زيلينا بشيء من الغرابة لسماعها هذا، وشعرت بقلبها ينبض بسرعة، واحست بالأنوار تتراقص في القاعة. إلا أنها وفي الوقت نفسه، حين رأت اللورد تشارنوك يغادر القاعة برفقة الكونتيسة، شعرت انه تركها بعيداً، وساورها شعور بالضياع والوحدة مجدداً.

الفصل الخامس

شعرت زيلينا بالقلق حين اعلن عن وصول الامير اليكسيس ستوغانوف؛ وذلك لعلمها ان الاميرة قد ذهبت في زيارة خاصة إلى الامبراطورة.

قالت الاميرة: «لا يمكنني ان اصطحبك معي يا زيلينا، لان الامبراطورة تود رؤيتي وحدي.»

«هذا غير مهم. اذ قلما أجد الوقت لاقرأ بعضاً من الكتب الرائعة التي تحتويها مكتبتكم، وفي ذهني كتاب ارغب في انهاء قراءته، لأنه يتحدث عن سانت بطرسبورغ.»

فضحكت الاميرة وقالت: «لكن ذلك سيستغرقك من الوقت اكثر من الذي ساكون فيه خارج القصر. تذكري، هناك حفل استقبال هذا المساء في قصر آل ميكايلوف، ولقد بلغني ان الدوقة الكبيرة هيلينا تتوق للقائك.»

«يبدو لي هذا مثيراً جداً!»

وبعد مغادرة الاميرة القصر، استأنفت زيلينا قراءة الكتاب الذي انهت حوالي نصفه من قبل.

وبعد ان جلست قرب النافذة في القاعة الذهبية حيث كانت تتحدث مع الاميرة، استغرقت في قراءة الكتاب دون ان تفكر بأي شيء آخر.

لكن بعد اعلان وصول الامير ستوغانوف، وقفت في مكانها لان الأمر الوحيد الذي لم تتمناه يوماً هو ان تكون بمفردها معه. اذ انه ومنذ ان قدمها له اللورد تشارنوك في

السفارة البريطانية لم يتوقف عن ملاحقتها بإصرار أرعبها.

فهي لم تثق بتعابير عينيه أو كلماته المجاملة التي كانت تصدر منه بسهولة.

تقدم الامير نحوها فقالت له: «أخشى انني بمفردي، وان الخدم قد اخيروك هذا.»

«أجل، لقد فعلوا! لكن بما ان الاميرة غير موجودة بيننا الآن، يمكنني ان اتحدث اليك كما رغبت منذ ان رأيتك للمرة الأولى.»

«انت تعلم ان فعلك هذا... غير لائق.»

«عندما تعرفينني اكثر، وهذا ما أنوي فعله، ستعلمين أنني لا اقوم بعمل غير لائق ابداً، لكن ما اريد فعله الآن هو امر مختلف.»

«إذن ان لم... تغادر... انت، ساغادر... انا.» ورغم محاولتها الكلام بنبرة حاسمة، وباردة معاً، الا انها كانت تحس بنبضات قلبها تضرب بقوة، وانه ان كان عليها الاستجابة لتلك النبضات، يجب ان تهرب وباقصى سرعة.

فقد ارعبها كل ما سمعته عن الامير، وكل ما اخبرها به حين كانا معاً، وكذلك ارعبتها نظرات عينيه. لكنها وبخت نفسها قائلة انه لا يمكن له ان يقدم على ايذائها وهي في ضيافة الأمير والأميرة.

«اتظنين انني ساتركك ترحلين؟»

أحست زيلينا من نبرة صوته انه جاد في منعها من ترك القاعة في حال حاولت ذلك، الأمر الذي سيجعله يمسك بها.

www.liilas.com

ولخوفها من قيامه بذلك، ترددت في محاولة الهرب، ثم قالت: «ان كنت تريد ان تتحدث الي في أمر ما... سأصغي اليك... لكن ارجوك... قل ما لديك باختصار، لانه في حال عادت الأميرة ووجدتك هنا، لن يروق لها استقبالي الضيوف... في غيابها.»

«اؤكد لك انها لن تفكر بشيء، من هذا القبيل! فهي خبيرة في الحب. والحب، يا وردتي الجميلة الانكليزية، هو الأمر الذي أود مناقشته معك.»

جفلت زيلينا لسماعها ذلك وقالت: «هذا... ما لا ارغب... في سماعه.»

«ولم لا؟ فالحب يهم كل امرأة، رغم اني لم اقتنع يوماً انني الرجل المناسب الذي يجب ان يخبرك عن ذلك.»

فجلست زيلينا على الأريكة، وجلس الأمير قالتها.

قال الأمير: «احبك يا زيلينا! احبك لدرجة انني منذ التقيتك للمرة الأولى لم اعد اشعر انني مرتاح سوى حين اراك. ماذا فعلت بي كي اشعر هكذا؟»

حولت زيلينا نظرها عنه وراحت تجول بنظرها على انحاء الغرفة، ثم قالت بصوت مرتجف: «ارجوك... لا يجدر بك... ان تقول لي... مثل هذا الكلام.»

«ولم لا؟ عليك ان تصغي الي! انا معجب بك يا زيلينا، وانا على يقين من انني ساجعلك سعيدة جداً.» ثم تنهد وقال: «لو كان بإمكاني طلب يدك للزواج، لكنت فعلت. لكنك تعلمين انني متزوج، مما يجعل الأمر غير مرحب به.»

جفلت زيلينا لسماعها كلمة «زواج» ثم سألته بصوت عالٍ: «هل انت... متزوج؟»

«اجل، بالطبع. الزيجات في روسيا تدبر منذ صغرنا. ولقد اختار والداي زوجتي.»

«لديك... زوجة!»

«اجل، اجل، لكن لا تأبهي لذلك.»

«امرها يهمني بالطبع! واعتقده عملاً منتقداً... منتقداً جداً من جهتك ان تتحدث الي بهذه الطريقة فيما انت رجل... متزوج، وولائك يجب ان يكون للسيدة... التي تحمل... اسمك.»

هز الأمير كتفيه وقال: «لم تعد تأبه لذلك، ويعيش كل منا في مكان، لذلك تجديني اقدم لك قلبي يا زيلينا.»

وقفت زيلينا وقالت: «لا اريدك ان تتحدث الي بهذه الطريقة. يدهشني ان اسمعك تتكلم عن الزواج وكأن ليس له... عواقب، واعترافك بحبي... لا اعتبره مجاملة، بل هو، حسبما اعتقد انا، اهانة!»

اعتقدت ان الأمير سيرتد عنها بعد هذا الكلام، لكنه عوضاً عن ذلك، نظر اليها مبتسماً وقال: «هل يمكن ان يكون هناك امرأة اكثر جمالاً وتألقاً منك، حتى وانت توبخينني؟» أضاف: «يا حلوتي، يا وردتي الانكليزية الرائعة، سأعلمك انه ما من شيء مهم سوى الحب، والحب يهزم كل شيء.»

قالت: «لقد اخبرتك ما اشعر وافكر به، ويجدر بي ان اطلب منك... كرجل نبيل... ان تحترم مشاعري.»

ضحك الامير وقال: «انا لست رجلاً انكليزيا، نبيلاً، بارداً، تقليدياً وبالطبع محترم.» ثم تابع بنبرة ساخرة: «انا روسي، وفي داخلي حرارة لا تنطفىء!»

فصرخت: «اخرج من هنا!»

وقف الامير فادركت انه لن يرتدع، فأطلقت صرخة، وفي تلك اللحظة ولحسن حظها، فتح الباب ودخل الامير ايفان الذي قال بتعجب: «لم اكن اعرف انك هنا يا اليكسيس!»

فمكّن تدخله زيلينا من تخليص نفسها من هذا الموقف، ودون أي شرح أو تعليق، غادرت القاعة.

ارتفع حاجبا الأمير ايفان تعجباً لدى رؤيتها تهرع خارج القاعة، ثم نظر إلى الامير وقال: «هل عدت إلى حيلك المعتادة يا اليكسيس؟»

«انها رائعة! فاتنة! انها بريئة كلياً.»

فكر الامير ايفان للحظات، ثم قال: «لا يرغب الملك بأي مشاكل مع البريطانيين في هذه الايام مما يترتب عليه كذلك ألا تثار الضجة حول اللورد تشارنوك.»

«لا اعتقد ان ذلك يهم فتاة في مثل عمرها؟ اضافة إلى ان ناتاشا لن تترك للورد الوقت للتفكير بأمر آخر.»

«انا واثق من ذلك. لكن وفي نفس الوقت، يساعد البريطانيون بعضهم البعض. وان تسببت هذه الفتاة بإثارة أي مشاكل، سيزعج ذلك الملك بالتأكيد.»

أومأ الأمير اليكسيس بيديه حركة معبرة جداً وقال: «لم ادرك يوماً انه يمكن لأي امرأة ان تربك حياتي، باستثناء زيلينا.»

ضحك الأمير ايفان وقال: «ان شدة اعجابك بها أمر مقيت، لكنني اعترف انها تستأهله.»

«اترك لي تدبير كل شيء، وكذلك امر الفاتنة زيلينا.»

• • •

عندما اصبحت زيلينا بمأمن في غرفتها، خطر لها كم كان اللورد تشارنوك محقاً عندما حذرها من ان تكون في مكان بمفردها مع روسي.

فقررت انه في المرة المقبلة وعندما تخرج الأميرة، قررت زيلينا الا تمكث في احدى القاعات، بل ستمكث في غرفتها وتقفل الباب.

لكن ذلك اقلقها، في نفس الوقت، فهي تتوق لرؤية اللورد تشارنوك وتسمع صوته الحنون والمطمئن. ثم تذكرت الكونتيسة ناتاشا، وقالت في نفسها بأسى انه لا يمكن ان يكون لديه الوقت ليفكر بها. الا انها لم تتمكن من منع نفسها من التفكير به والتلهف لرؤيته.

• • •

بما ان الأمر لم يكن متوقعاً ابداً، لم تتمكن زيلينا من تصديق الأمر، حين وجدت نفسها بعيدة مسافة اميال عن سانت بطرسبورغ وتقيم في واحد من اروع القصور.

فلدى عودة الأميرة من زيارتها للامبراطورة، قالت ان القيصر يرغب في ان يقيموا في قصره في تزارسكوي سيلو وانه في انتظارهم في صباح اليوم التالي.

كان توضيب الأمتعة والقيام بالترتيبات العامة لجميع افراد الأسرة أمراً لم تعرفه زيلينا من قبل، الا انها وجدته مثيراً. ولم تكن دايفي لترافقها وذلك بسبب موعد عودتها إلى ستوكهولم على متن سفينة ستقوم بعد يومين. الا ان الأميرة دبرت لزيلينا ماشطة أخرى، بدت بمهارة دايفي.

لكن زيلينا طلبت من دايفي مساعدتها في اختيار الثياب

التي ستأخذها معها إلى تزارسكوي سيلو، تاركة العديد من الاثواب الأخرى.

قالت دايفي: «سأوضب لك الامتعة كلها، يا آنستي، ففي حال بقيتم هناك فترة اطول مما تتوقعه الأميرة، يمكن لهم ان يرسلوها لك بكل سهولة.»

«شكراً لك.»

ثم اعطت دايفي اكرامية كبيرة وهدية عبارة عن وشاح كانت دايفي قد عبرت عن اعجابها به خلال توضيبها لاغراض زيلينا.

«لا، هذا كثير! لا يمكنني ان آخذه يا آنستي!»

«لحسن الحظ ان لدي الكثير من هذا الطراز، واريدك ان تأخذيه، واطلب منك ان تتذكريني حين تضعيه حول كتفيك.»

«سأفعل، يا آنستي، وأتمنى لك كل السعادة.»

«اشكرك، اشعر انني بحاجة لذلك.» وخطر لها الأمير اليكسيس، وكم سرها ان تعلم انه لن يزعجها بعد مغادرتها سانت بطرسبورغ.

الا انها ذعرت حين اكتشفت أن القيصر قد دعاه للعشاء معهم في تزارسكوي سيلو وقد كان ذلك ليصدمها كثيراً لو لم تعلم بوصول اللورد تشارنوك في صباح اليوم التالي، الأمر الذي اسعدها كثيراً. ما لم تكن زيلينا تعرفه هو ان القيصر قد اقام هذه الحفلة لقلة المعلومات التي من المفترض ان يتلقاها من الكونتيسة ناتاشا والعملاء الآخرين الذين امرهم بالتحقق من أمر اللورد تشارنوك.

اضافة إلى البوليس السري، وبناءاً على أوامر تلقوها، تمكن البوليس السري من فتح اثنين من حقائبه الخاصة.

وبالرغم من ان الأمر انجز بمهارة فائقة ولا يمكن لاحدهم ان يكتشف ذلك، الا ان اللورد اكتشف ذلك فوراً، دون ان يشعر بأي انزعاج لأن كل الملفات الموضوعة داخل الحقائب مكتوبة بالشيفرة التي قد يصعب جداً على الروس فك رموزها بالرغم من اهمية بعض المكتوب بالنسبة اليهم.

اما الهدف الرئيسي لزيارته، فقد كان معلوماً بالنسبة له فقط، وهو غير مكتوب على ورق بل في عقله. ولكم استمتع بجهود الكونتيسة ناتاشا لاستخلاص المعلومات منه.

لكن اجوبة اللورد على اسئلتها لم ترض القيصر على الاطلاق، لذلك قرر، بعد ان خيب ظنه البوليس السري والكونتيسة ناتاشا، قرر ان يظهر لهما مهارته.

قال للورد تشارنوك: «اريدك ان ترى تزارسكوي سيلو. سنتوجه انا والامبراطورة إلى هناك غداً، واتمنى لو تنضم الينا.»

«يسرني ذلك. لكن ارجو من حضرتك ان تسمح لي بالانضمام اليكم في اليوم التالي، أي بعد غد، لان السفير البريطاني سيقيم حفل عشاء على شرفي غداً مساءً.»

وافق القيصر على مضض، واختار باقي المدعوين بدقة، وحرص على ان يدعو زيلينا ومضيفها حتى يقتنع اللورد الانكليزي انه ما من ضرورة ليشك في سبب دعوته.

اضافة إلى الضيوف، كان هناك عدداً من اقارب القيصر الذين يعرف انهم خفيفو الظل واذكياء دون ان يكون لهم أي علاقة بالسياسة.

قال القيصر لرئيس البوليس السري: «سأتولى بنفسي أمر القيام بهذه المهمة، ذلك لان رجالك لا يملكون من

الحنكة ما يتطلبه التعامل مع رجل داهية مثل اللورد تشارنوك.»

«أنا واثق من ان سيادتك ستنجح في ذلك.» هذا ما قاله الكونت بنكيندوف موافقاً رغم رفضه الشخصي للموضوع.

يبعد تزارسكوي سيلو عن بطرسبورغ مسافة ساعتين، استمتعت زيلينا خلالهما بمشاهدة الريف من نافذة عربة يجرها اربع من الخيول بسرعة فائقة.

لاحظت زيلينا ان الريفيين الروس لهم هيئة واحدة، طوال القامة، وحشيي الهيئة، لحاهم طويلة، شعرهم اشعث، ينتعلون جزم عالية، ويرتدون معاطف مصنوعة من صوف الخروف، هذا بالإضافة إلى ان الغبار ثيابهم.

اما النساء، فلم يظهر منهن الا عدد قليل، وكن يتصفن ببشاعة الهيئة والوجه.

واكتشفت زيلينا لدى وصولهم ان القصر كبير جداً. ومع ان الأميرة اخبرتها انه ستقام حفلة على نطاق ضيق، لاحظت زيلينا، حتى قبل وصول اللورد تشارنوك، ان هناك اكثر من ثلاثين ضيفاً.

قدم العشاء في تمام الساعة الخامسة في صالة يتوسطها طاولة على شكل حدوة الحصان. وبدا الخدم، بزيهم المؤلف من عمامة بيضاء وبذلة باللونين القرمزي والذهبي، شرقيي الملامح والهيئة. وما ادهش زيلينا هو ما قالته لها ماشطتها، والتي على الرغم من كونها روسية، الا انها تجيد الفرنسية، قالت لها ان هناك اربعمائة طاهي في القصر، اربعون منهم يسافرون مع القيصر، وفي كل مرة تنتقل فيها العائلة المالكة من

سانت بطرسبورغ إلى الريف، يتطلب هذا الانتقال استخدام اربعمائة عربة.

وقد كانت زيلينا ترى أولاد القيصر للمرة الأولى في تزارسكوي سيلو، وبعد العشاء دخل دوقان صغيرين مرتديان الزي الروسي والسعادة العارمة بادية على وجهيهما، وعندما أضحكهما القيصر، اخذ الاثنان يتدحرجان على الارض.

كانت مربية اسكوتلندية ترافقهما، اضافة إلى مربية فرنسية، وبعد انصراف الولدين والمربيتين، تذكرت زيلينا انها لو لم تعمل بنصيحة اللورد تشارنوك، لكان انتهى الأمر بها كما هو حال هاتين المربيتين، بعد انتهاء العشاء، طلبت الامبراطورة من ضيوفها الانصراف، والعودة في تمام الثامنة لحضور حفل الاستقبال.

بدلت زيلينا ثوبها ثانية، وارتدت هذه المرة ثوباً أنيقاً مخصصاً للحفلات. وقد كانت السيدات الاخريات مرتديات أثواباً انيقة جداً، لدرجة جعلت زيلينا تقارن بينهن وبين افراد العائلة المالكة.

اما الامبراطورة، فقد ظهرت مرتدية ثوباً أبيض، وعقداً مرصعاً بحجارة كبيرة زرقاء من الزفير، وكذلك الأمر بالنسبة إلى ابنتها الثانية التي كانت تزين عنقها بعقد من اللؤلؤ، ويدها بسوار مرصع بالألماس والياقوت، ورغم ان الامبراطور كان يتحدث ببساطة وكأنه يعيش حياة متواضعة، الا انه لا يستطيع أحدهم ان يتخيل وجود أي مكان يظهر السلطة المطلقة، والثراء، والترف كما هو الحال في البلاط الملكي.

وبعد ساعتين من الحديث العام والمشترك بين جميع الموجودين، لاحظت زيلينا ان الامير اليكسيس، والذي لم توجه اليه الحديث منذ وصولها، انه يتجه نحوها.

فوجهت نظرها باتجاه الأميرة التي كانت تتحدث إلى سيدة تكبرها في السن، وتنتمي إلى العائلة المالكة، ثم توجهت شخصياً إلى حيث الاميرة، التي سألتها: «ما الأمر؟»

«اتساءل، ان كان بامكاني الذهاب إلى غرفتي؟ اذ اني اشعر بصداع خفيف، ورغم ان اليوم كان ممتعاً، الا انه كان متعباً أيضاً.»

«افهم من كلامك انك تعبت بعد حضور حفلتين في سانت بطرسبورغ... وبما اننا سنحضر حفلة أخرى مساء غد، اعتقد انه يمكنك الانسحاب إلى غرفتك. وسأقدم اعتذارك للامبراطورة ان لاحظت غيابك.»

«شكراً لك.»

ثم اسرعت زيلينا نحو الباب، وما ان نظرت خلفها حتى رأت تعابير الغضب بادية على وجه الامير اليكسيس، فأدركت انها قامت بالصواب.

وفي اليوم التالي، علمت ان القيصر وحين يكون في الريف، يحب ان تجري الامور بطريقة غير رسمية، مما يعني انه بعد ان اعلن ما يريد القيام به، سيتسنى للضيوف التصرف بحرية دون تلقي أي أوامر، فاصطحبه القيصر إلى الحديقة ليريه بعض التحسينات التي قام بها، والنافورة التي يحيط بها منحوتات منحوتة من الذهب وموضوعة امام القصر.

ولانها تعلم ان الأمير اليكسيس يتربص لها، بقيت زيلينا

ملتزمة جانب الأميرة، وظنت انها قد نجحت في إبعاده إلى ان اقترب وقال للأميرة أولغا: «هل لي، وبعد اذنك، ان اصطحب ضيفتنا الانكليزية لأريها المطير؟ انا واثق من ان الطيور التي جمعتها الامبراطورة ستنال اعجابها.»

«بالطبع، يا اليكسيس! وان كنت تفكر بدعوتي انا أيضاً، اؤكد لك انني قد رأيته مرات عدة!»

كان البريق يتراقص في عينيها عندما كانت تتكلم، فرد الامير مبتسماً: «يؤسفني انك لن ترافقينا، ويكون من المؤسف أيضاً ان تفوت الأنسة تايفرتون فرصة مشاهدة مكان ينم عن ذوق مضيفتها الفني الرفيع.»

«بالطبع.» ثم استدارت لتتحدث مع شخص آخر.

حاولت زيلينا جاهدة ان ترفض مرافقته، وفيما هي تتساءل عن طريقة أخرى لتتملص منه، قادها الأمير عبر الممرات الرخامية المؤدية إلى الجهة الأخرى من القصر. ومشى الاثنان مسافة طويلة، مروراً بعدد من الخدم لم تشعر زيلينا بوجودهم، رغم قلقها، انها وحدها مع الأمير، ثم وصلا إلى دفيئة للبرتقال بنيت إلى احدى الجهتين، ومن الجهة الأخرى يقف المطير.

كان المبنى الأول عبارة عن حديقة داخلية علمت زيلينا ان السيدات كن يمارسن الرياضة فيها خلال فصل الشتاء عندما يصعب الخروج من القصر، ولم تر في حياتها كلها حديقة بهذا الجمال، حيث اشجار البرتقال المزهرة، والنباتات المعرشة تزين الجدران، واحواض الزهور التي تحتوي على مختلف انواع الزهور كالبنفسج والاوركاديا.

فصفقت زيلينا يديها لروعة الازهار ورائحتهم العطرة

التي يعبق بها المكان وهتفت: «آه، ما أجملها! ما أروعها!»

«وكذلك أنت!»

فعادت فوراً إلى وعيها، والتفتت حولها لتجد نفسها وحيدة دون وجود أي من الخدم أو الحراس. فسألت بعصبية: «أين الطيور؟»

فأشار إلى مكان يظهر جزء منه من بين الأعمدة، وقال: «سأريك اياهم بعد لحظات، لا داعي للعجلة!»

فردت باحتجاج: «اريد ان اراهم.»

«اريدك ان تصغي إلي.»

«ما من شيء تقوله أرغب في سماعه.»

«ساجعلك تغيرين رأيك. يجب ان احدثك على انفراد يا زيلينا، وفي مكان لا يزعجنا فيه احد.»

«اؤكد لك ان ذلك مستحيل.»

«انا اصر على ان تصغي إلي ما سأقوله.»

فتساءلت عن وسيلة تقنعه انها لا ترغب في ان تكون معه، وفيما هي تفكر في ذلك، تابع كلامه قائلاً: «غرفتي لا تبتعد كثيراً عن غرفتك. سآتي اليك الليلة واتحدث اليك بعد ان يأوي الجميع إلى فراشهم.»

«لا... لا! بالتأكيد لا!»

قال: «اسمعي الآن، ايتها الفتاة الغبية. لا افعل أي شيء لا تودينني ان افعله. اقسم لك انني لن أؤذيك، لكن علي ان اتحدث اليك. اريد ان اقول لك كم تعنين لي، وكم تشغلينني، الامر الذي لم يحصل لي من قبل قط.»

«أنت... رجل متزوج!»

«سأقنعك ان ذلك غير مهم.»

«ستضيع وقتك... دون جدوى... انت لزوجتك... وليس لأي شخص آخر.»

فابتسم الأمير، وأدركت زيلينا انه يستمتع برفضها له، وما زاد في خوفها ان رفضها ذاك جعلها أكثر أهمية في نظره.

فقالت: «سيكون باب غرفتي مقفلاً، وان اقتربت مني سأصرخ طالبة النجدة، وهذا بالطبع... سيثير فضيحة.»

«لا اظن ان احداً سيسمعك. والفضيحة ستنقلب عواقبها عليك، يا وردتي الانكليزية الجميلة، وليس علي.»

كانت زيلينا تدرك في قرارة نفسها ان ما يقوله صحيح. فما تعلمته من خلال عيشها مع الروس يجعلها توقن انه ما من احد يرى الأمير الا حنوناً، وسيماً، وان رآه احداً في غرفتها فستكون هي من يثار حولها الشكوك. وبينما كانت زيلينا غارقة في افكارها، كان الأمير ينظر اليها وعلامات الانتصار بادية على وجهه وكأنه نجح في التأثير عليها.

فقالت بتوسل: «أرجوك... لا تخيفني أو تجبرني على شيء.»

ولانها لم تعد تقاومه، تغير مزاج الأمير وقال: «يا حلوتي! يا عزيزتي! يا وردتي الانكليزية الجميلة! انا لا انوي اخافتك.»

ثم اخذ يقترب منها، وحين التقت عينيها بعينيه، شعرت وكأنه ينومها مغناطيسياً وانها مهما قاومت، سيصعب عليها الهرب.

فإذا بها تصرخ بصوت تردد صداه في أرجاء المكان لتتخلص من تأثيره عليها وتستدير بعيداً عنه. وقبل ان

يتمكن من منعها، ركضت باقصى سرعة لديها عائدة إلى حيث الضيوف مروراً بالممر الذي عبراه للوصول إلى دفيئة البرتقال.

وما كادت تصل إلى الصالون حيث تركت الأميرة، حتى ينفتح باب غرفة مقابلة لها ويدخل احدهم. ولانها كانت تركض بسرعة، لم تتمكن من منع نفسها من التوجه نحوه، وعندما اقتربت منه، اكتشفت انه اللورد تشارنوك.

فراح يحدق بها بفضول، وبعد ان خف لهاثها بسبب السرعة التي كانت تركض بها، احمر وجهها فسألها ببرود: «ماذا تفعلين؟ إلى اين تركضين؟»

«انه... انه... الأمير! انا... خائفة... خائفة جداً منه!»

نظر اللورد تشارنوك إلى الممر خلفه، فلم يجد احداً. اصطحب بعد ذلك زيلينا إلى الغرفة التي كان قد خرج منها، فإذا بها غرفة تحتوي على عدد من خزائن الكتب، وتتوسطها طاولة عليها مجموعة من الصحف، منها الروسية، السويدية، البولندية، والدانماركية. هذا بالاضافة إلى عدد من الصحف الانكليزية والفرنسية من اصدارات قديمة.

ولم تأبه زيلينا لمعرفة السبب الذي جعل اللورد يدخل الغرفة، كل ما اهتمت له هو انه موجود الآن امامها، وان الخوف الذي جعلها تهرع بعيداً عن الأمير قد بدأ يخف.

سأل اللورد بنبرة غاضبة: «ما الذي قاله الأمير واخافك؟»

«لن... يتركني وشأني... لقد... أخبرته انني... لا أريد أن استمع إليه... لانه رجل... متزوج.»

ولما لم يعلق اللورد على ما قالته، تابعت: «لا يجدر به

ابداً... ان يلاحقني... فيما لديه زوجة... ولانه كان مصراً على ذلك... لم اتمكن من الهرب منه.»

قطب اللورد حاجبيه وقال: «هذا ما اعتقدت انه سيحصل. لكن، لماذا كنت معه بمفردك بعد ما قلته لك؟»

«لقد... طلب من الأميرة ان يصطحبني ليريني... المطير. وعندما وافقت، لم اعرف كيف... اتملص منه.»

فازعج اللورد تشارنوك عدم قدرته على شرح الامر لفتاة في عمر زيلينا، انها لو كانت انضج من ذلك أو لها خبرة في الموضوع لتمكنت من اختلاق عذر مقبول لتتخلص من هذه الورطة.

فخطر له أن انسحابها الليلة الماضية إلى غرفتها باكراً له علاقة بالأمير.

فتساءل الآن عما يمكن ان يقوله لها، عن نصيحة يستطيع ان يقدمها لها لكي تتمكن من حماية نفسها من محاولة الأمير. ولما لم تعد زيلينا قادرة على الانتظار، نظرت اليه بتوسل وقالت: «أرجوك أخبرني... ماذا يسعني ان افعل، يبدو لي انه... يهددني، رغم انني اعتقد انه حماقة مني... ان اشعر بهذا.»

«لا يسعني الا ان اكرر لك ما قلته من قبل، انك لا يجب ان تكوني وحدك معه. ارجعي الآن وابقي مع الأميرة أو مع احدى السيدات الموجودات في الحفلة، اذ ان بعضاً منهن يقاربنك في السن وحاولي ان تبني صداقة معهن.»

اطلقت زيلينا تنهيدة عميقة وقالت: «ساحاول... اعتقد انني كنت حمقاء حين قبلت... مرافقة الأمير... رغم موافقة الأميرة.»

«كان كذلك، بالتأكيد.» ثم نظر إلى الساعة وقال: «علي الذهاب الآن لان القيصر ينتظرني ليريني احواض القرنفل. في الواقع، لقد اتيت إلى هنا كي اجمع بعض التصاميم لبناء المزيد منهم.»

ثم اراها التصميم الذي كان يحمله في يده، وقالت زيلينا بصوت حزين: «لا يجب ان اؤخرك، أعلم كم هو متعب... أن استمر بازعاجك... في سماع مشاكلي.»

«ما من ازعاج على الاطلاق، لكن اعملي بنصيحتي، وتذكري ان الجميع يدرك أن الأمير متهور في تصرفاته، وان القليل من الناس تعتبره بجدية.»

لم تعلق زيلينا على كلامه، لكنه عرف ما تريد قوله، وهو انه مهما قال الناس عن الأمير، فهو يخيفها.

«علي ان اذهب، وستكون غلطة كبيرة لو علم احدهم انني هنا معك على انفراد. اسرعي في العودة إلى الأميرة في الصالون، وسأتحقق أنا من عدم اعتراض احد طريقك إلى ان تصلي إلى هناك.»

ظنت زيلينا انه يسخر منها، فقالت: «اشكرك... مجدداً للطفك معي. سأحاول ان اتصرف بطريقة اذكى... في المرة المقبلة.» ودون ان تنتظر تعليقاً أو رداً على كلامها، اسرعت في العودة إلى الصالون، فيما اللورد يراقبها إلى ان تأكد من وصولها إلى الصالون حيث الضيوف مجتمعون، ثم خرج عبر الباب الذي يؤدي إلى الشرفة حيث ينتظره القيصر. غير انه لم يكن مهتماً بالقرنفل أو بالتصاميم الذي يحملها اللورد تشارنوك. اذ انه كان يفكر في قضية أخرى تختلف تماماً عن هذه، ويحاول معرفة موقف الانكليز من

مشكلة الروس مع تركيا وايران، وكذلك معرفة ما ان كان اللورد بالمرستون أية فكرة عن الخطوات التي قد يتخذونها في الشرق. وكان اللورد تشارنوك يعرف هذا، وفيما هو يتوجه نحو القيصر، قرر في نفسه فجأة انه، فيما يخصه، لم يعد من جدوى لبقائه في روسيا.

ذلك لانه على ثقة، أنه مهما بذل من جهود، فلن يتمكن من ايجاد اجابات على الاسئلة التي اعطاه اياها اللورد بالمرستون، وهو على ثقة أيضاً ان ايرل دورهام كان قادراً على المراوغة باسلوب دبلوماسي.

ولطالما ادرك اللورد تشارنوك صعوبة التعامل مع الروس وذلك لتفكيرهم في أمر وتنفيذهم لآخر، وانه على من يتعامل معهم ان يكون واعياً ليحزر ما ينوون القيام به.

فقال في نفسه: حتى لو أقمت هنا لعشرين عاماً، لن أحرز أي تقدم.

ومن ناحية أخرى، قد يحدث أمراً عن طريق الصدفة يؤدي إلى كشف عدد من الأمور قد تكون ما يرغب اللورد بالمرستون معرفته بالضبط.

ثم تابع في نفسه قائلاً: التعامل معهم صعب جداً. وهناك ما هو اهم لافعله في حياتي من التزلف وارضاء السلطات مهما بلغت من نفوذ.

وهو في قرارة نفسه، يدرك منذ لحظة وصوله إلى روسيا انه لا يحب القيصر، وقد كان هناك العديد من الاشخاص الذين هم على استعداد لاطلاعه على صفات منفردة في شخصية القيصر.

منها قدرته على التأكيد ان من لا يوافقه الرأي مجنون،

اضافة إلى شعبته الخاصة في البوليس السري، والمسماة الشعبة الثالثة، والتي يتمحور دورها حول لعب المهذب الاخلاقي لكل بلدة في روسيا.

وما اغضب اللورد تشارنوك لم يكن هذا وحسب، بل اغضبه الفقر، والمرض والجوع المنتشرين بين عامة الشعب.

فبينما الضيوف يستمتعون بتناول العشاء في القصر الشتوي، كان الاطفال والنساء يموتون من الجوع. فيما كان القيصر يصمم ثياباً فخمة لجنوده. قال اللورد تشارنوك في نفسه: ان هذا كله مهزلة! وكلما اسرعت في العودة إلى انكلترا، كلما كان ذلك افضل!

وعلى ذلك، بعد ان سلم التصاميم للقيصر، انهال عليه فجأة بعدد من الاسئلة لم يجرؤ ان يسألها أي دبلوماسي يوماً.

ولسبب غير مفهوم، اجاب القيصر بصراحة رغم قدرته التامة على الامتناع والتملص، وكشف عن اهتمامه بايران، موضحاً انه لن يقوم بأي عمل لا يرضي الانكليز.

وعندما حان وقت الغداء كان اللورد تشارنوك والقيصر في حالة انسجام لدرجة انهما عادا معاً متشابكي الذراعين.

الا ان اللورد، ورغم استغراقه التام في التفكير بانجازاته الدبلوماسية، ولسبب غير معروف، وجد اللورد نفسه ينظر إلى زيلينا التي بدت سعيدة وهي تحدث الشاب الذي كان يجلس إلى جانبها إلى مائدة الطعام.

بعد انتهاء الغداء، طلب القيصر مرافقة اللورد تشارنوك مجدداً، واستمرا في الحديث طيلة فترة بعد الظهر إلى ان حان وقت تبديل الملابس لاقتراب موعد العشاء.

وعندما انتهى الجميع من تناول طعام العشاء، اعلنت الامبراطورة ان هناك فقرة خاصة لتسلية الضيوف، فتوجه الجميع من قاعة الطعام إلى الصالون الذي يؤدي إلى شرفة تطل على احدى الحدائق المزينة حيث تم ترتيب عدد من الكراسي للضيوف التي تمت حمايتهم من نسيم الليل البارد بواسطة ستائر تلف المكان.

من ناحية ثانية، كانت امسية دافئة، ومع ذلك، احضر الخدم اكثرة من فرو القاقوم والسمور للسيدات، وكان في متناول ايديهم أيضاً سترات من انواع الفراء ذاتها في حال شعرن بالبرد. ومن ثم، وفي ظل السماء التي بدأت النجوم تستطع فيها، ظهرت فرقة موسيقية، وتردد صدى موسيقاهم الممتعة في أرجاء المكان.

الا ان ذلك بدا مختلفاً عما رأته زيلينا على متن الاسكورا.

استمتعت زيلينا بذلك حتى انها شعرت ان الموسيقى قد انتزعتها من نفسها ونقلتها إلى عالم بدائي يثير الدهشة والسرور.

وفيما هي غارقة في السعادة والحماس، هز داخلها احساس بالخوف حين اكتشفت أن الأمير يراقبها.

فتمنت لو انها تستطيع ان تخفي مشاعرها عنه، لانها تعتبره تدخل في أمر يعنيها فقط.

وبعد انتهاء العرض، شعر الجميع بالسعادة العارمة لانهم ضحكوا، وتحدثوا، كل ذلك حدث قبل ان ينسحب القيصر وزوجته، ثم يأوي الجميع إلى فراشهم.

قالت لها الأميرة فيما الاثنتان تصعدان إلى الطابق العلوي: «أنا واثقة من انك استمتعت بوقتك.»

«لقد كان ذلك رائعاً! لطالما تخيلت الفجر هكذا.»

«يسرني انك لم تتضايقي. ان الفجر الروس يتمتعون بموهبة عالية. في الحقيقة، بعض اشهر راقصات الباليه الروسيات يحملن دماً فجرياً في عروقهن.»

«اتمنى ان احضر العرض ثانية.»

«لك ذلك. اعدك.»

كانت غرفة زيلينا بعيدة عن جناح الاميرة الذي يقع عند نهاية الممر الطويل. وبعد ان وصلتا إلى باب غرفة زيلينا، انحنت الاميرة لتقبل خد زيلينا: «عمت مساءً، يا عزيزتي. لقد كنت رائعة الليلة، ومحط اعجاب الجميع، وخصوصاً الامير اليكسيس، فهو أسير جمالك!»

وأوشكت زيلينا ان تقول للأميرة ان هذا هو آخر ما تتمناه، لكن الأميرة سارت بعيداً، فلم يعد في وسع زيلينا فعل شيء سوى الدخول إلى غرفتها.

وما ان دخلت الغرفة، حتى توجهت نحو النافذة، وهي لاتزال تحت تأثير السهرة، وأخذت تتأمل النجوم في السماء، ثم قالت في نفسها ان روسيا بلد غريب وغامض، الا انها وفي الوقت نفسه بلد مثير.

اذ انه من المستحيل ان لا يتأثر المشاهد بروعة القصور، والتحف النادرة والرائعة التي تزين الغرف والقاعات، هذا اضافة، بالطبع، إلى شخصيتي الامبراطور والامبراطورة.

وعندما نظرت زيلينا إلى النجوم التي كانت تتلألأ في السماء، شعرت ان الفجر قد اثاروا في الناس احاسيس قريبة مما يسمى الحب. ذلك لان الحب أيضاً لا يقاوم، يسلب العقول، ويتحكم بالانسان.

وهي على ثقة من ان الحب الذي قدمه لها الأمير اليكسيس يختلف تماماً عن الحب الذي تريده.

اذ انها ترى ان الحب الذي ستقدمه لحبيب قلبها، تراه على انه نجمة ساطعة في ذهنها، رقيقاً وحنوناً. قالت في نفسها: أنا أريد الحب الذي يشعرني بالأمان.

فإذا بالحب الذي تتلهف لايجاده، الحب الذي تشعر به في داخلها، هو ما تشعر به تجاه اللورد تشارنوك.

فقد كانت حمقاء لانها لم تدرك ذلك من قبل، حين كانت تتحدث اليه فتشعر بالارتياح.

كذلك لم تكن تشعر بخوف وهي برفقته، دون ان تدرك السبب. وبعد اكتشافها حقيقة احاسيسها، شعرت بالحب يملؤها، ثم قالت بصوت عالٍ تردد صداه في الغرفة: أنا احبه!

وبقيت واقفة تنظر إلى السماء لفترة طويلة، ثم قالت في نفسها انه يجدر بها تبديل ثيابها لتأوي إلى الفراش، حين تذكرت الأمير اليكسيس، شعرت بالذعر، لذلك توجهت نحو الباب لتقفله.

وما ان مدت يدها لتمسك بالمفتاح حتى جفلت، وكانها تحولت إلى صخرة، لانها اكتشفت ان المفتاح ليس في مكانه.

الفصل السادس

اعترى زيلينا الخوف الشديد، لدرجة انها ارادت ان تصرخ، ان تهرب من القصر، من روسيا، من كل شيء كان يهددها ويخيفها تماماً كما يفعل الغول.

لكنها تذكرت انها ان اثارت ضجة حول الأمر، فإن الادانة ستتوجه لها وليس للامير.

وتذكرت كذلك ان غرفته قريبة من غرفتها، وتمنت لو انها تعرف اين ينام اللورد تشارنوك، لكانت ذهبت اليه. الا انه لم يكن لها ادنى فكرة عن مكان وجوده في هذا القصر الواسع، وقالت في نفسها: «ماذا يسعني ان أفعل؟ آه، ماذا يسعني ان أفعل؟»

ثم تذكرت أمراً غريباً قد صادفها عندما كانت خادمتها توضب لها ثيابها. وهو ان جدران غرفتها مكسوة بألواح خشبية زيتية، كما هو حال باقي الغرف في القصر. وقد كانت هذه الالواح ملونة بالابيض والذهبي ليناسب السقف المزين أيضاً.

ومهما يكن، ولأنه لم يكن هناك خزانة في الغرفة، ظنت الخادمة ان الخزانة تقع خلف احد هذه الالواح الزيتية، فتوجهت نحوه وهي تحمل أحد اثواب زيلينيا، وما ان لمسته حتى فتح، وكم فاجأ زيلينيا ان ترى مدى ضيق المساحة خلفه.

وقد كانت على وشك ان تقول للخادمة انه لا يمكن ان

توضع كل اثوابها في المكان، حيث رأت ملامح الذعر بادية على وجه الخادمة التي تمتمت بضع كلمات بالروسية.

فأدركت زيلينيا ان ما وجدته الخادمة هو مخبأ سرياً، وما ان أوشكت الخادمة على اغلاق الباب ـ اللوح، حتى تقدمت زيلينيا نحوها ومنعتها. فقد سبق لها ان سمعت عن مخابىء سرية في القصور الروسية.

اقتربت زيلينيا وقالت: «دعيني القي نظرة. اريد أن أرى كيف يعمل.»

«لا، لا، أنسنتي. لا يجدر بك أن تنظري. سيتسبب لي ذلك بمشكلة!»

«أعدك ألاّ أخبر أحداً.»

وكان الخادمة خشيت من امعان النظر في ما اكتشفته، ابتعدت إلى الجهة الأخرى من الغرفة، وفتحت باب لوح آخر لتثبت ان ما كانت تراه هو أولاً ـ خزانة، التي كانت تتسع ليس فقط لثياب زيلينيا، بل أيضاً لكل أغراضها، لكنها كانت على ثقة من انها ان اختبأت هناك سيجدها الامير.

لذلك، أخذت تبحث في الغرفة عن الزر الذي تضغطه فيفتح الباب ـ اللوح كي تدخل إلى المخبأ السري.

وظنت للحظات ان ذلك لن ينجح، إلى ان تمكنت من فتح الباب ـ اللوح، فدخلت واختبأت في الهوة المظلمة، وكانت على وشك ان تغلق الباب ـ اللوح حين خطرت لها فكرة أخرى.

فقد ساعدها ضوء الشموع على اكتشاف ان هناك مدخل من المخبأ إلى غرفتها وإلى الغرفة الملاصقة لها. وبما انها لم تكن واثقة تماماً من أن تلك الغرفة لا يشغلها

www.liilas.com

أحد، فتحت الباب. اللوح ببطء في حال رأت أحدهم هناك.

إلا انها سرعان ما تأكدت من انه ما من أحد في الغرفة وأن السرير لا يشغله أحد. ثم أغلقت الفتحة المؤدية إلى غرفتها ومن ثم المؤدية إلى الغرفة التي دخلت إليها. وقالت في نفسها بعد ان أطلقت تنهيدة عميقة لشعورها بالارتياح: أنا في مأمن الآن!

ولأن القلق لا يزال يساورها فيما يخص الأمير، تساءلت إذا كان يعرف بالمخابىء والمداخل السرية في القصر، مما سيساعده على اكتشاف الطريقة التي ضللته بها.

فقالت في نفسها: لن ابقى في هذه الغرفة، سأنتقل إلى مكان آخر. وفي ذهنها أنه أياً يكن الذي صمم هذه السلسلة من المداخل السرية، فقد صممها في عدد من الغرف.

لكن استغرقها بعض الوقت هذه المرة، لتجد الزر الذي يفتح الباب ـ اللوح في وسط زهرة منحوتة على اللوح، وبعد ان فتح الباب ـ اللوح، شعرت زيلينيا بالفرح لأنها تمكنت من انقاذ نفسها بذكاء. وما ان دخلت إلى المخبأ حتى سمعت أحدهم يتكلم، لأن الغرفة يشغلها أحد.

سأل رجل بالفرنسية: «هل تسمح لي بالدخول، يا سيدي الكونت؟»

«أجل، بالطبع، يا فيليب. أمل أن يكون في جعبتك الكثير من الأخبار، خصوصاً بعد ان أمضى القيصر وقتاً طويلاً مع اللورد تشارنوك. اجلس وأخبرني ما عندك.»

«ان القيصر مسرور جداً منه، لأنه تأكد من ان اللورد تشارنوك يعتقد ان اهتمامنا ينصب فقط على تركيا وايران.»

«هل القيصر اكيد من ذلك؟»

«بكل تأكيد! لذلك يمكننا ان نباشر تنفيذ خطتنا ونتسلل إلى داخل افغانستان.»

«جيد! هذا يجعل كل شيء أكثر سهولة مما توقعت.»

لأن زيلينا سمعت ما كان يدور من حديث بين هذين الرجلين، ولأنه قد تم ذكر اسم اللورد تشارنوك، أدركت زيلينا انه ان علم الرجلان بأنها سمعت حديثهما، ان حياتها ستكون بخطر.

فهي لم يكن لها أدنى فكرة، من خلال الصحف التي قرأتها، ان الكونت هو الذي كان يفاوض اللورد بالمرستون.

لكن لأنها كانت خائفة جداً، لم تتحرك سوى بحذر شديد لتغلق باب المدخل الذي دخلت منه والمؤدي إلى الغرفة الفارغة المجاورة لغرفتها.

ثم عادت تتنصت إلى حديثهما، متمنية الا يصدر منها اية حركة أو صوت قد يجعل الرجلان يشكان بوجود أحد يتنصت عليهما.

إلا انها لم تشعر بالاختناق والحاجة إلى الهواء، الأمر الذي فيه شيء من الغرابة. ففي اعتقادها ان المخابىء السرية فيها من الهواء ما يكفي لأي كان يشغلها حتى يستمر في تنصته.

ولم تتمكن من العودة إلى الغرفة الفارغة الا بعد ان تمنى فيليب للكونت نيسيلرود، ان كان هو المدعو، تمنى فيليب له ليلة سعيدة وغرق الكونت في نوم عميق وراح يشخر بصوت عالٍ.

إلا أنها لم تجرؤ على العودة إلى غرفتها لخوفها الشديد

من أن يكون الأمير جاء إلى غرفتها، وظل ينتظرها عوضاً عن مغادرته الغرفة.

لذلك أقفلت الباب الخارجي للغرفة حيث توجد الآن. واستلقت على السرير لارهاقها الشديد. ولم تتمكن من النوم العميق الا مع بزوغ الفجر.

وعندما أيقظتها أشعة الشمس التي تسللت إلى الغرفة عبر النافذة لأنها لم تسدل الستائر، قالت في نفسها انها ستكون في مامن ان عادت إلى غرفتها الآن، فعادت عبر الممر السري. فكانت الغرفة على حالها، إلا أنها أكيدة من ان الأمير كان هناك.

فقد شعرت بغضبه يعبق في المكان، لكنها بدلت ثيابها وعادت إلى السرير لأنه ما من شيء يرعب في النهار كما يرعب في الليل.

ولم تطلب من خادمتها احضار الفطور، الذي قدم لها على صينية، الا في وقت متأخر بعد دخولها إلى غرفتها، ثم قامت من سريرها وبدلت ثيابها ثم نزلت إلى الطابق السفلي.

وقررت ان تجد اللورد تشارنوك وتتحدث إليه. ليس فقط لتنقل إليه ما سمعته في الليلة الماضية، بل أيضاً لتخبره انها لم تتمكن من حماية نفسها من الامير.

الا ان القصر بدا أكبر حجماً مما كان عليه بالأمس، حتى انها وجدت صعوبة في معرفة مكان اللورد تشارنوك أو كيف يمكنها التحدث اليه على انفراد.

ولأنها علمت بأمر المخابىء السرية في غرف النوم، أدركت انه يستحيل عليهما التحدث في أي من غرف الجلوس دون المخاطرة بأن يسمع حديثهما.

وقالت في نفسها: عندما أجده، سأطلب منه ان يرافقني إلى الحديقة.

ثم أخذت تبحث عنه في الصالونين اللذين كانا فارغان.

وفيما هي تقف حائرة تنظر إلى الصحف على الطاولة، سمعت الباب يصفق خلفها. وما ان التفتت حتى وجدت الأمير يقف عند الباب، ومن نظرة واحدة إلى وجهه، تكفي لمعرفة قدر غضبه، ولم يكن في وسع زيلينا فعل شيء سوى التحديق به؛ وعينيها متسعتين من الخوف بينما كان يقترب منها سائلاً اياها بغضب شديد: «أين كنت؟ اين كنت ليلة أمس؟ أعتقد انني سأقتلك، ان كنت مع تشارنوك! لطالما اعتقدتك بريئة ونقية لكنني اشك في ذلك الآن وأريدك أن تعلميني بمكان وجودك أمس حيث كنت تختبئين مني.»

«لا يحق لك... ان تسألني مثل هذه الاسئلة... أيها الأمير.»

ورغم انها حاولت التكلم بطريقة حادة الا ان صوتها كان يرتجف وكذلك هي لأنه كان قريباً منها، حين قال لها:

«اريد اجابة على سؤالي، وستفعلين هذا، حتى وان كان علي ان انتزعه منك! اين كنت؟»

«لقد كنت في مكان... أمين حيث... لا يمكن أن تجدني وأكون لوحدي.»

وقالت في نفسها انه لا يجب ان يتورط اللورد تشارنوك في هذا الموضوع لأن الأمير قد يقدم على ايذائه، وهي تدرك انها حين ذكرت كلمة «لوحدي» بدا القلق يخف عن وجهه تدريجياً.

فهو الآن ينظر اليها بفضول سائلاً: «هل هذا صحيح؟»

«ما من سبب يدعوني للكذب... وان كنت قد اتيت إلى...

غرفتي، اقول لك ان ذلك عمل... حقير و... فعل لا يحق لك... القيام به!»

«لي كل الحق، لأنني أحبك. أنت لي، زيلينا. وأقسم انني لن أدع رجل آخر يأخذك مني!»

أخذ يقترب منها أكثر فأكثر، فتسارعت نبضات قلبها هلعاً واعتقدت انها لن تتمكن من التخلص منه. فصرخت لشدة خوفها، وإذا بأحدهم يفتح الباب، انه معاون القيصر، الذي كان يرتدي بزة حمراء مزركشة باللون الذهبي، صممها القيصر بنفسه. وقد كان هذا الجندي مدرباً بطريقة جيدة تجعله يعبر عن مفاجأته لدى رؤيته أي مشهد يستحق ذلك.

فرفع الامير رأسه وسأل بعصبية: «ماذا تريد يا هذا؟»

«استميحك عذراً، لكنني ابحث عن الآنسة تايفرتون؛ معي رسالة لها من اللورد تشارنوك.»

هرعت زيلينا نحو المعاون وقالت بنبرة غريبة: «معك... رسالة... لي؟»

«أجل، آنسة تايفرتون. لقد طلب مني اللورد تشارنوك ان اعلمك بأنه سيغادر بعد ساعة من الآن إلى سانت بطرسبورغ ومن ثم يعود أدراجه إلى انكلترا.»

فشهقت زيلينيا لسماعها ذلك، ثم توجهت نحو الباب مروراً بالمعاون وقالت: «يجب أن أرى... اللورد تشارنوك... حالاً. قل لي... أين أجده.»

أخيراً، إذن، تمكنت من الهرب من الامير، وكانت قد تقدمت مسافة في الممر قبل ان يتمكن المعاون من اللحاق بها. سألته: «أين أجد... سيادة اللورد؟»

«أخشى، آنسة تايفرتون، انك لن تتمكني من الحديث اليه

في هذه اللحظات، لأنه مجتمع مع القيصر ويطلب عدم ازعاجه.»

فقالت بصوت اقرب إلى نفسها منه إلى سمع المعاون: «يجب ان اتحدث... اليه!»

«أنا واثق من انك ستتمكنين من ذلك. إذ ان سيادته سيودع القيصر في القاعة الخضراء، وان انتظرت هناك، سيتسنى لك رؤيته والحديث إليه.»

فأدركت زيلينا ان الحديث إلى اللورد تشارنوك على انفراد في هذه الظروف دون ان يتم سماع حديثهما هو أمر لن يحصل.

فودت لو انها تصرخ في وجه المعاون الحاحاً منها بطلب رؤية اللورد تشيرنوك، الا انه خطرت لها فكرة، فجأة.

وبعد ان درستها، قالت للمعاون الذي كان ينتظر وهو ينظر اليها بفضول: «هل لك ان تخبر سيادته... عندما... تراه، انني وللأسف الشديد... لن اتمكن من... توديعه، وانني اتمنى له «رحلة سعيدة»، وعودة حميدة إلى انكلترا.»

«سأنقل له بالطبع، رسالتك، يا آنسة تايفرتون.»

«شكراً لك.»

وهرعت بأقصى سرعة لديها عبر الممر ثم صعوداً إلى الطابق العلوي متوجهة نحو غرفتها، حيث ارتدت ثياب ركوب الخيل وأرسلت خادمتها إلى الطابق السفلي ليتم تجهيز خيل لها. قالت للخادمة: «لا أرغب في مرافقة أحد لي خلال ركوبي الخيل، باستثناء سائس، بالطبع. لذلك أطلبي تجهيز الحصان ووضعه في مكان لا يراني منه أحدهم وأنا أغادر القصر.»

«فهمت قصدك، آنستي.»

ثم عادت الخادمة بعد قليل واصطحبت زيلينا عبر باب جانبي إلى حيث لم يكن هناك أحد سوى حارسين على أهبة الاستعداد.

وكان بانتظارها خيل اسود رائع وسائس يركبا خيلاً مدرباً، كما هو حال باقي الخيول في الاسطبل الملكي، ليعدو اسرع من أي خيل انكليزي امتطه زيلينا في حياتها كلها.

أما بالنسبة للسائس الذي كان في انتظارها، فقد كان يرتدي بزة انيقة، ويجيد الفرنسية إلى درجة تمكنه من فهم ما تقوله زيلينا بخصوص المكان الذي تريد التوجه إليه.

ثم انطلق الاثنان بسرعة تحبس الانفاس عبر الفسحة التي تحيط بالقصر إلى خارج الريف متجهان نحو سانت بطرسبورغ.

• • •

أمضى اللورد تشيرنوك ليلة قلقة في محاولة لايجاد طريقة لمغادرته دون ان يثير الاستياء.

فبعد مقابلته الطويلة مع القيصر، قرر انه ما من شيء يستدعي بقاءه في روسيا. وأدرك انه مهما اطال من فترة النقاش والحديث حول تركيا وايران، لن يجمع كماً اكبر من المعلومات.

إضافة إلى ان حدسه الذي لا يخطىء أخبره ان القيصر يخفي عنه المعلومات التي يتوق اللورد بالمرستون إلى معرفتها.

وعلاوة على ذلك، كان اللورد واثقاً من أنه ما من أمل كي يتحدث القيصر عن أي أمر لا يعلمه البريطانيون، وان متابعة المحاولة بتفاؤل لا شيء سوى مضيعة للوقت.

ويعلم أيضاً ان اللطف الذي ابداه القيصر تجاهه قد يتبدل في أي لحظة.

إذ لم يكن هناك من هو أكثر غموضاً من القيصر نيكولاس، وانه ما من أحد تحدث اليه الا وجعل اللورد يدرك ان القيصر حذر جداً ان كان في موقف قد تكلفه زلة لسان فيه إلى الوقوع في كارثة.

الا أنه مهم جداً ان يبقى تلهف القيصر للتعاون مع البريطانيين كما هو ولا يتغير، وقد أدرك اللورد تشارنوك أن عليه الرحيل قبل ان يتبدل مزاج القيصر اللطيف.

ومما زاد في رغبته في الرحيل سبب شخصي: ألا وهو سأمه من إلحاح الكونتيسة ناتاشا في الايقاع به.

فهو يدرك تماماً ان المهمة التي كانت تقوم بها الكونتيسة قد تحولت بالنسبة اليها إلى شيء آخر.

الا انه كان يشك، وبتهكم واضح، ان كانت تعرف معنى الحب الحقيقي، لكنه كان يدرك انه يسيطر عليها حب وطيش شديدين، هما عند الروس أمرين فطريين ولا يمكن السيطرة عليهما.

شعر بالارتياح لأنها لم تكن من ضمن المدعوين للاقامة في تزارسكوي سيلو.

لذلك قال القيصر للورد تشارنوك فيما كان متوجهاً إلى غرفته مع زوجته الرقيقة اليكسندرا: «ان شعرت بالوحدة

بعد الاستماع إلى الموسيقى الفجرية، ستنضم الينا ناتاشا اوبلانسكي غداً.»

فقد كان يتحدث وكأنه يقدم للورد تشارنوك شيئاً مميزاً. وما كان على هذا الاخير سوى التعبير عن شكره وامتنانه.

ثم مد القيصر يده لزوجته ورافقها من الصالون.

وبعد ان دخل اللورد تشارنوك غرفته، شعر بالارتياح لأنه ما من سبب ليزعجه أحد أو يتسلل إلى غرفته احد عبر المداخل السرية التي، ولحسن حظه، ستبقى مغلقة.

لكنه أصر على ايجاد عذر لكي يرحل، وقد وجده، إذ ان أحد الخدم اقترب منه بينما كان يتناول طعام الفطور مع الرجال، وأعلمه ان هناك موفد من قبل السفير البريطاني في سانت بطرسبورغ يود رؤيته.

فالتقى اللورد تشارنوك هذا الموفد في احدى غرف القصر المعدة لذلك حيث يمكن تسجيل كل ما يقوله أي شخص يكون في داخلها.

قال الموفد: «لقد طلب مني سعادة ايرل دورهام، يا سيدي اللورد، ان اسلمك هذه الرسالة الشخصية باليد، واعلمك بعد قراءة الرسالة ان السفينة دولفين بانتظارك في الميناء.»

نظر اللورد إلى الموفد بتأمل، دون أن يتفوه بأية كلمة. ثم فتح الرسالة المحكمة الاقفال والمختومة التي سلمه اياها الموفد.

وكان في داخل الظرف ظرف آخر الذي حين فتحه اللورد تشارنوك، عرف من الخط الكبير والواضح انها من اللورد بالمرستون. فجلس على كرسي وقرأ الرسالة بتمعن:

عزيزي تشارنوك:

يؤسفني ان أعلمك بأن والدتك على غير ما يرام. يعتقد الاطباء انه من الأفضل أن تأتي في أسرع وقت ممكن لتبقى إلى جانبها.

اتمنى الا تصلك رسالتي هذه في وقت غير مناسب أو تنغص عليك صفو زيارتك.

كي تتمكن من السفر في أسرع وقت ممكن، أرسلت لك هذه الرسالة مع ربان هـ.م.س دولفين، الذي سيكون رهن اشارتك.

المخلص

بالمرستون

وبعد ان انهى اللورد قراءة الرسالة، رأى عند أسفلها جملة مكتوبة بالشفرة. ولأن الرموز المستخدمة مألوفة بالنسبة إليه، تمكن من فكها بسهولة. كانت الجملة تقول: لا تقلق كثيراً على والدتك.

فأدرك اللورد عندئذ ان والدته، والتي هو مرتبط بها ارتباطاً وثيقاً، انها على خير ما يرام.

بالرغم من انها لم تكن بصحة جيدة يوماً، ليكون ذلك العذر الذي يستخدمه غالباً ليسهل امر مغادرته من بلد ما أو التخلص من مواقف لم تعد تحتمل.

فشعر بالارتياح لأن هذا العذر هو ما يحتاجه الآن بالضبط، فقال للموفد: «بأي وسيلة نقل جئت إلى هنا؟»

«في عربتين، يا سيدي اللورد.»

فابتسم اللورد تشارنوك لأنه أدرك بأن ايرل دورهام كان

واثقاً من انه سوف يغادر حالما ينهي قراءة رسالة اللورد بالمرستون.

«يجدر بك ان تتناول طعام الفطور أولاً، ثم نرحل بعد ساعة من الآن.»

«حسناً، سيدي اللورد.»

ذهب اللورد تشارنوك لرؤية معاون القيصر ليساله ما إذا كان ممكناً أن يلتقي بالقيصر، وثانياً ان يوصل رسالة لزيلينا.

فهو لن ينسى وعده لها بألا يغادر دون أن يخبرها.

إلا انه انزعج حين علم انها قد تركت له رسالة وداع دون أن تأتي شخصياً لتوديعه، كما توقع.

فقال في نفسه بينما كان يبتعد عن القصر: أردت أن أراها.

ورغم انه شعر بالارتياح لمغادرته، الا انه كان يشعر بالقلق على زيلينا.

ثم قال في نفسه انه ما من ضرورة ليقلق بشأنها. فرغم كل شيء، تهتم الاميرة لأمرها، اضافة إلى انها آجلاً أم عاجلاً سوف تعتمد على نفسها.

لكنه قال في نفسه ان ذلك درساً تتعلمه في انكلترا اسهل منه في روسيا.

ولم تعجبه السرعة التي كانت تنطلق بها الخيول الاربعة التي كانت تجر العربة.

لقد كان هناك طريق واحد يصل بين سانت بطرسبورغ وتزارسكوي سيلو، وبما ان القيصر كان يسلكها، فهي الافضل في روسيا دون أدنى شك، ويختلف كثيراً عن الطرق

الوعرة والموحلة في انحاء أخرى من البلد. الأمر الذي كان يتسبب في إعاقة سير المسافرين خلال رحلاتهم والتأخر لمدة ساعات أو حتى أيام.

كان منظر الريف الروسي تحت ضوء أشعة الشمس يبدو رائعاً، لكن اللورد تشارنوك يفكر في زيلينا، ويتساءل كيف استطاعت ان تتركه يرحل دون ان تودعه.

إذ ان عينيها كانتا تكشفان عن احاسيسها، ولكنه بدأ يشك بأنها معجبة به، وليس فقط لأنه يمثل الحماية والامان بالنسبة اليها.

دون ان يحسم انها مغرمة به، بل انه ومن اللحظة التي سافرا فيها معاً على متن السفينة الانكليزية، ومن ثم على متن الاسكورا، بدأ يعني لها شيئاً. قال في نفسه: انها تشعر هكذا فقط لأنها صغيرة، والعالم يبدو مخيفاً بالنسبة اليها.

ثم تذكر ناتاشا وملاحقتها له ومدى انزعاجه منها، إلا انه لن يراها بعد الآن، على الأقل هذا ما تمناه. لكن الغموض يلف تصرفات الروس، وحين يكون أحدهم مغرماً، فإنه يتصرف بطريقة همجية تماماً، لم يسبق لها مثيل.

وهذا ما جعله يفكر بالأمير، مما جعل العبوس يعلو جبينه. فلام نفسه لأنه لم يلح في طلب رؤيتها، وأنه كان يجدر به ان ينتظرها.

على الأقل كان يجب ان يخبرها انه في حال اصبحت تصرفاته لا تطاق، يمكنها ان ترتب أمور عودتها إلى انكلترا مع السفير البريطاني. ثم قال في نفسه مطمئناً: أعتقد ان لديها ما يكفي من المال. وقرر انه حالما يصل إلى سانت بطرسبورغ سيرسل لها رسالة يخبرها فيها ما يجب عليها فعله.

وفي نفس الوقت، قرر أن يطلع السفير على وضعها. دون أن يظهر للايرل اهتمامه الشخصي بها بل يشدد على ضرورة الاهتمام بالطفلة حتى لا يزعجها الامير اليكسيس المعروف بطيشه وبذاءته. قال في نفسه: كان علي ان اتدبر شأنه قبل ان ارحل!

وقد كان حينئذ، بينما كان يهنيء نفسه على رحيله من روسيا وتخلصه من مشاكل زيلينا، حين شعر ان الخيول قد خفت سرعتها. فاستغرب ذلك لأن العربة كانت تسير في طريق رئيسية واسعة. وحين نظر أمامه على بعد مسافة قريبة، رأى الحوذي يشد اللجام بسبب ظهور شخصين يمتطيان الخيل ومتوقفان في وسط الطريق.

فتساءل باستغراب عما قد يكون عليه الأمر، إلى أن توقفت الخيول واقترب احدهم من العربة.

قال متفاجئاً: «زيلينا!»

فانحنت كي تقول له عبر نافذة العربة: «يجب ان اتحدث اليك... على انفراد، وكانت هذه... الطريقة الوحيدة لأتمكن من ذلك.»

فابتسم اللورد وقال: «بالطبع.»

فهو يدرك ان ما في جعبة زيلينا لتقوله له لا يجب ان يسمع من قبل الحوذي أو السائس. إذ انه لم يكن أمراً طبيعياً ان يتكلم الخدم المرافقين، باستثناء الخدم الشخصيين أو الذين يعملون لدى السفارة البريطانية، أي لغة أخرى غير الروسية. إلا ان هذا لم يكن أكيداً قط.

إذ قد يكون الخادم مدرباً على ان يصغي إلى ما يقال، ومن ثم يبلغه إلى البوليس السري الذي ينتشر في كل مكان.

فقال اللورد تشارنوك: «اقترح ان نتمشى قليلاً بما ان الجو جميل، وستكون فرصة لي كي أنشط قدماي قليلاً.»

فابتسمت زيلينا له وكانها تهنئه لأنه فهم ما تريد، وبعد ان ترجلت عن الحصان، أمر اللورد الخادم ان يفتح باب العربة، ثم ترجل.

مشت زيلينا إلى جانبه ثم مشى الاثنين بعيداً عبر طريق تزينها الأزهار إلى ان وصلا حين تقف مجموعة من الاشجار الشاهقة.

وعندما التفت الاثنان، كان بامكانهما رؤية العربتين، احداهما تقف خلف الأخرى؛ وفي العربة الثانية كان الموفد المبعوث من قبل السفارة البريطانية، وهيبرت الذي ظل في العربة لأن امتعة اللورد كانت موضوعة فيها.

ولم يتفوه اللورد باية كلمة إلى أن توقفا تحت الاشجار التي ردت عنهما أشعة الشمس، فنظر إلى زيلينا بقلق وسألها: «ماذا في الأمر؟ أتساءل لماذا لم تودعيني مع باقي الأشخاص في القصر؟»

«كان علي... ان أراك... على انفراد.»

ثم تابعت بنبرة متوترة قبل ان يعلق اللورد على كلامها: «هل صحيح أنك... ستغادر... إلى انكلترا؟»

«لقد تلقيت رسالة تقول ان والدتي مريضة.»

«يؤسفني سماع ذلك، لكن لا يمكنك ان تتركني هنا.»

ثم نظرت اليه لتدرك من تعابيره ان اللورد كان يتوقع ما قالته، وما ان أوشك على القول لها انه لا يسعه فعل شيء حيال ذلك، قالت بسرعة: «لقد جاء الامير... إلى غرفة نومي... ليلة أمس!»

جفل اللورد لما كان يسمع. تابعت: «لقد سرق المفتاح من الباب، لأنني كنت مرعوبة... جداً، تمكنت من الهرب عبر... مخبأ سري في الحائط إلى... الغرفة الملاصقة لغرفتي.»

«هل انت واثقة من ان الأمير قد أخذ المفتاح؟»

«واثقة جداً! فقد أخبرني انه... سيأتي إلي ليحدثني. عندها، قررت ان... ابقيه بعيداً، الا انني وجدت نفسي... غير قادرة على القيام بذلك.»

«هذا تصرف مشين! حقير!»

«لحسن حظي ان خادمتي... دون قصد منها أرشدتني... إلى... مخبأ سري. لكني، ولكي اكون واثقة من ان الامير لن يجدني، بحثت عن مخبأ آخر... داخل الغرفة المجاورة التي دخلتها، ووجدت... واحداً!»

«هذا ذكاء من جهتك!»

«لقد تمكنت من انقاذ نفسي، وحين كنت في المخبأ السري الثاني، سمعت... حديثاً يدور في الغرفة خلف المخبأ، التي كان يشغلها أحدهم، وهذا الحديث... يهمك!»

لم يتفوه اللورد باية كلمة، فادركت انه يصغي بتركيز تام. فقالت: «اعتقد، رغم انني لست واثقة، ان الرجل الذي كان يشغل تلك الغرفة هو الكونت تيسيلرود، والرجل الثاني الذي كان يحدثه اسمه فيليب.»

«انه البارون فيليب دي برونو. انه السكرتير الأول في وزارة الخارجية.»

«لقد أرسله القيصر ليبلغ رسالة إلى الكونت نيسيلرود بعد ان انهى حديثه معك.»

«وسمعت ما قيل؟»

وشعرت زيلينيا ان ما ستخبره اياه يهمه كثيراً، فهزت رأسها ايجاباً، فسألها: «ستخبريني ما سمعت؟»

«ظننت انه عليك ان تعلم بذلك. وها أنا سأحاول ان اتذكر كل كلمة.»

«اشكرك، يا زيلينا. أخبريني الآن ما سمعته.»

كررت زيلينا بحذر وبطء الرسالة التي أرسلها القيصر مع البارون، وما قاله الكونت نيسيلرود للبارون دي برونو وأضافت: «ثم تابعا الحديث حول الهند.»

«هيا، تابعي الكلام.»

«قال الكونت نيسيلرود انه يفصل بين الهند وروسيا. أرض مساحتها ألفي ميل وهي ملك لايران، افغانستان، وجماعة السيخ المستقلون في البنجاب. وان اللورد بالمرستون، مهما حاول جاهداً، فإنه لن يتمكن من الحفاظ على هذه الارض كاملة.»

وفيما هي تتحدث، رأت ان اللورد كان ينظر اليها مشدوه الفاه. فختمت قائلة: «ثم ضحك الاثنان.»

وعمت لحظات من الصمت قبل أن يقول اللورد تشارنوك: «أشكرك يا زيلينا. اعتقد، وكما أنا واثق انك تعلمين، ان هذه المعلومات مهمة جداً وخطيرة، الا انك قمت بمخاطرة كبيرة بالتنصت إلى ما قيل.»

«لقد ظننت خلال وجودي في المخبأ السري انهما ان اكتشفا أمري، انهما قد يرغبان في... التخلص مني.»

«أنا واثق من انك كنت تعرضت لحادث مشؤوم.»

«لكن ما من سبب يجعلهما يعتقدان أنني سمعت حديثهما،

وفي نفس الوقت، أشعر بالخوف... لكن ليس كخوفي من أخاف... الامير.»

ثم شبكت يديها في بعضهما البعض وقالت: «آه، سيدي اللورد تشارنوك، ارجوك... ارجوك ارجعني معك إلى بلادي! لا يمكنني ان... ابقى وانا أعرف انه... مصمم على ان يجعلني... تحت نفوذه!»

ظل اللورد صامتاً، واغرورقت عينا زيلينا بالدموع، حين قالت له متوسلة: «أرجوك... أرجوك... ان لم تكن معي... اعتقد انني لن اتمكن... من انقاذ نفسي.»

فابتسم اللورد تشارنوك وقال: «اعتقد، يا زيلينا، انه علي انا وانت ان نتوجه إلى سانت بطرسبورغ بأقصى سرعة ممكنة!»

فرآها تحدق به وكأنها لم تصدق ما سمعت، ثم سألته بنبرة فيها الشك: «يمكنني ان... ارجع... معك؟» فكأنها تخاف ان تكون قد أساءت فهم ما قاله. قال: «سأرسل رسالة مع مرافقك.»

ثم عاد الاثنان إلى من كان بانتظار كل منهما، دون أي كلام.

وما ان دخلت إلى عربته، طلب اللورد تشارنوك من مرافقها ان يعود إلى القصر، آخذاً معه الحصان الذي كانت تمتطيه، وطالباً منه أن يعلم الأميرة فولكونسكي ان الآنسة تايفرتون ذاهبة معه إلى السفارة البريطانية في سانت بطرسبورغ.

تسلم المرافق الرسالة، وبعد ان صعد إلى العربة طلب إلى الحوذي ان ينطلق، فإذا بالخيول تنطلق بسرعة كادت ان تطير قبعة زيلينا عن رأسها. الا انها امسكتها بإحدى يديها

والتفتت إلى اللورد تشارنوك وقالت: «أشكرك... أشكرك! لقد خفت ان... تعيدني إلى القصر.»

ولأن الخيول كانت تعدو بسرعة كبيرة، لم يكن الكلام ممكناً، لكن ما ان توقفا بسبب الازدحام عند حدود سانت بطرسبورغ، حتى سألت زيلينا بشيء من الحماس: «هل سأعو... إلى انكلترا... برفقتك؟»

«هل أنت واثقة من انك لا تريدين رؤية المزيد من روسيا؟»

«لا أرغب حتى في التفكير بها ثانية!»

قال اللورد تشارنوك عندما أصبحا في نيڤا، وبدت أمامه القبب الذهبية والبروج اللامعة: «كم في هذا البلد من جمال وعنف! انه بلد يجمع الشيء ونقيضه!»

ثم سأل بنبرة عادية: «ماذا عن ثيابك؟»

«هناك العديد من صناديق الثياب في القصر، وما تركته في قصر القيصر لا أريده، أو ربما قد يرسلونه لي.»

«لا أعتقد ان ذلك محبباً.»

ثم انحنى إلى الامام واعطى تعليماته للحوذي، الذي كان ينطلق بسرعة أخف، وبعد عدة دقائق، توقفوا أمام قصر فولكونسكي.

وما ان فعلوا ذلك حتى نظرت زيلينا إلى اللورد تشارنوك بتساؤل. فقال: «ما أريدك ان تقومي به هو ان تبدلي ملابسك وتكوني على استعداد للرحيل معي حين اعود. وأتحضر للرحيل معك.»

«ألن... تتأخر؟»

«ان السفارة البريطانية لا تبعد عن هنا مسافة طويلة. لن أتأخر اكثر من نصف ساعة.»

«لن أجعلك تنتظر كثيراً.» أضافت وكأنها تخاف ان يتركها: «أوثق انت... واثق انك... ستعود؟ وانك لن... تغير رأيك؟»

«أعدك ان اكون هنا في الوقت الذي تتوقعينني فيه.»

«سأكون جاهزة!»

وهرعت إلى داخل القصر وذهب الحوذي بالعربة بعيداً. ثم قالت في نفسها وهي تصعد إلى الطابق العلوي بسرعة: «لا يجب أن أدعه ينتظر!»

إذ ان ما كانت تخشاه هو أن يحصل طارىء ما يمنع اللورد تشارنوك من اصطحابها أو ان لا تتمكن من مغادرة القصر.

ورغم عدم إمكانية حدوث ذلك، الا ان زيلينا كانت واثقة، رغم عدم وجود سبب منطقي لذلك، من ان الامير اليكسيس قد يحاول منعها من السفر من روسيا باحدى طرقه الحقيرة الخاصة.

وبما انه لم يكن هناك من وقت تضيعه، طلبت إلى الخادمات ان يساعدنها في توضيب امتعتها وانزالها إلى الطابق السفلي لتكون جاهزة للرحيل مع اللورد تشارنوك فور عودته.

قالت لهن: «أسرعن! أسرعن! أسرعن!» وشعرت ان قلبها كان يقول لها الكلام عينه.

الفصل السابع

لم تفكر زيلينا في نوع الثوب الذي سترتديه، فارتدت اول ثوب ناولتها اياها احدى الخادمات وذلك لأنها على عجلة من أمرها.

وعندما انتهت من لبس الثوب ووضعت القبعة التي تناسبه، والتي كانت موضوعة على المزينة، انتبهت انه واحد من أجمل الثواب بعد الظهر الذين تملكهم.

فهو مصنوع من قماش الكريب الزهري اللون، وتزينه شرائط عند الأكمام وحول الرقبة، اضافة إلى الشرائط على أطراف الثوب. مما جعلها تبدو كواحدة من الورود الانكليزية التي لطالما دعاها الامير اليكسيس بهذا الاسم.

فخطرلها للحظات، وبعد ان تسلل الخوف إلى داخلها لمجرد التفكير به، أن تبدل الثوب.

إلا أنها عادت وقالت في نفسها إنه ثوب رائع، وعليها أن تفكر كيف ستظهر أمام اللورد تشارنوك أكثر منه التفكير في الأمير.

مع مرور الوقت، عاود زيلينا ذلك الشعور بالخوف من انه إذا اكتشف الأمير اليكسيس انها قد غادرت تزارسكوي سيلو، فسيلحق بها إلى سانت بطرسبورغ ويمنعها من السفر من روسيا. ولأنها شعرت بالذعر لورود ذلك إلى ذهنها، تركت غرفتها وهرعت إلى الطابق السفلي لترى إن كان اللورد تشارنوك قد عاد.

www.liilas.com

فادركت أن الوقت لا يزال باكراً لعودته، وإذا بها تشعر بالخطر يحدق بها مع مرور كل دقيقة وهي بعيدة عنه.

ولأن الخدم في الردهة كانوا ينظرون إليها بفضول، دخلت إلى إحدى الصالونات، وللمرة الاولى لم تجد التحف والنقوش الرائعة اللوحات، السقف المزين برسومات مذهلة، والآثار الفنية لم تجد ذلك كله مثيراً.

إذ أن كل ما كانت تريده هو أن تشعر بالأمان هناك في إنكلترا، لدرجة أن غرف منزلها الريفية بدت لها أجمل بكثير من كل ما هو موجود في كل القصور.

حينئذ تذكرت اللورد تشارنوك، وأدركت فجأة أنها كانت تفكر في نفسها وليس فيه.

فهي لم تكن تجهل ان عودته الى انكلترا مع فتاة شابة دون وصيفة قد يثير فضيحة، دون أدنى شك.

رغم انه قد حرص على ان تصل الى سانت بطرسبورغ مع ماشطة استخدمتها من زوجة السفير البريطاني في كوبنهاغن لبعض الوقت، مما جعل الامر يبدو للروس وكأن كل اهتمامه بها كان فقط لكونها انكليزية وعمها وعمتها شخصيتان مرموقتان في المجتمع.

لذلك قد يبدو مستغرباً عودتها معه الى انكلترا دون مرافقة لها دون أي تفسير منطقي لذلك سوى لانها تريد مغادرة روسيا.

فتساءلت في نفسها: ماذا علي ان افعل؟

وذلك لانها تحبه ولا تريد ايذاءه بأي طريقة، فهي تعلم ان ثرثرة عمتها ورفيقاتها لن يسبب له الحرج وحسب، بل قد يدمر حياته السياسية أيضاً.

فتساءلت ثانية: ماذا يسعني ان أفعل؟ ثم قالت في نفسها انه ان كان حبها له كبيراً كفاية، فإنها سوف ترجع الى تزارسكوي سيلو وتواجه الامير.

رغم علمها انها ان فعلت ذلك، سيفرض الامير نفسه عليها، ولن تتمكن حينئذ من الدفاع عن نفسها. وفيما هي تفكر في ذلك، دخل اللورد تشارنوك الى الصالون. فشهقت لرؤيتها إياه.

وقبل ان تخبره عما كان يدور في ذهنها، تذكرت انه سيكون حتى في قصر فولكونسكي مخبرين يتنصتون الى ما يدور بينها وبين اللورد تشارنوك من حديث.

سألها: «هل انت مستعدة؟»

«أجل، لكن هناك أمر يجب ان أخبرك اياه، لكن ليس هنا.»

فهم ما عنته، فقال: «هناك عربة في الخارج بانتظارك وأخرى لامتعتك.»

تقدمت زيلينا اللورد، وخرجت من الصالون مروراً عبر الردهة باتجاه الباب الامامي.

وعندما مشى على السجادة الممتدة على السلم وصولاً الى الرصيف حيث عربة السفارة البريطانية تنتظر، رأت امتعتها توضب في عربة أخرى.

فخطر لها انه قد يكون عليها إعادتها ثانية، وعندما جلس اللورد الى جانبها، رأت السائس يغلق باب العربة، لتنطلق العربة بعد ذلك. أما العربة التي سيسافر فيها اللورد وزيلينا فمرده الى ان اللورد لا يريد ان يراهما أحدهم يسافران معاً.

فقالت له بسرعة: «قبل أن نذهب إلى الميناء، يجب أن اقول لك شيئاً.»

سنذهب أولاً الى السفارة البريطانية، ومن ثم سأصغي إلى كل ما تريدين قوله.»

كان يتكلم بصوت فيه من الرقة والحنو وكأنه يعلم ان امراً ما يزعجها. ثم التزم الاثنان الصمت فيما الخيل تنطلق عبر الطرقات الواسعة التي صممها القيصر بطرس.

ولم يمض وقت طويل حتى وصلا الى السفارة البريطانية حيث كان الموظفون الواقفون امام الباب الامامي بانتظارهما.

فقال اللورد لكبير الموظفين: «هل لك ان تخبر سيادته بوصولنا؟ سننتظر انا والآنسة تايفرتون في قاعة الاستقبال الصغيرة.»

فتقدمهما كبير الموظفين عبر القاعة الرخامية وفتح الباب.

بدت قاعة الاستقبال التي دخلاها انكليزية الطراز بالنسبة إلى زيلينا؛ أي فيما يتعلق بالاثاث والتصميم، ولعل هذا يكون من ضمن الاسباب التي جعلتها تشعر بالارتياح لأنه كان النقيض التام للروعة المفرطة التي تتصف بها القصور الروسية.

وبعد تأمل المكان، قررت زيلينا ان تخبر اللورد بما كانت تنوي اخباره اياه في القصر، فنظرت إليه، ليرى في عينيها تعابير لم يتمكن تفسيرها في تلك اللحظة. سألها: «ماذا جرى؟ ماذا يضايقك؟»

«لقد... كنت... افكر، ان هناك أمراً يجب ان تأخذه في عين الاعتبار قبل... ان نرحل.»

«ما هو؟»

«لقد كنت لطيفاً جداً معي، وما زاد في لطفك مرافقتي لك إلى انكلترا. لكن يجب ان تفكر في نفسك... ومستقبلك... وان سفري معك... منفردة إلى انكلترا قد... يؤذيك.»

«أنت تفكرين بي؟»

«أجل، بالطبع. ولأنك مهم جداً... والجميع يحترمك، لا يمكنني ان أسمح للناس بالتهامس عليك والاساءة لك، رغم كون ذلك غير صحيح، الأمر الذي، وكما تعلم... قد يدمر مستقبلك.»

«أفهم ما تقولينه لي، ولقد تأثرت كثيراً. لكن، وفي نفس الوقت، ليس هناك من خيار آخر.»

«لقد فكرت... بطريقة... ان كنت... توافق.»

«وما هي هذه الطريقة؟»

«ان كان ذلك ممكناً، أوصلني إلى أول ميناء خارج روسيا، ومن هناك سأتدبر أمري... وأرجع الى ديارى. ومن ثم تنبه ربان السفينة انه ما من ضرورة لاحدهم ان يعلم... انني كنت معك.»

ولم تكن زيلينا تنظر إلى اللورد خلال كلامها معه، خوفاً من ان ترى في عينيه الارتياح الذي سيشعر به لأنه سيتخلص من مشاكلها. فعم الصمت للحظات، ثم قال: «هل حقاً تنوين ان تتحملي مصاعب العودة منفردة كي تحافظي على اسمي وسمعتي؟»

«ان ذلك... يقلقني ويخيفني، لكنني أتوقع ما قد يحصل، لذلك سأظل في مقصورتي، في حال كان هناك رجال مثل السيد آدمسون فلا يراني أحدهم.»

«لماذا تهتمين كثيراً لسمعتي؟»

«لأنك شخص مهم... جداً. لا أعلم لماذا أرسلت إلى روسيا، لكن القيصر، الكونت نيسيلرود، وبالطبع اللورد بالمرستون يقدرونك ويوقرونك. لذلك أجده أمراً غير مقبول... وحتى شرير ان أسمح لشخص غير مهم مثلي ان يدمر الهالة التي تحيط بك.»

«وانت تعتقدين حقاً ان وجودك معي قد يفعل ذلك؟»

«يبدو لي... وكأنه كذلك. لكنني سمعت ما قالته عنك السيدات اللواتي زرن الأميرة، وأنا واثقة من انهن لا تختلفن عن صديقات عمتي كاثلين. فهن يثرثرن... ويثرثرن، دون ان يكون في وسعك فعل شيء حيال ذلك.»

«إذاً، ولكي تنقذيني من ثرثرة اولئك النسوة، انت على استعداد لاحتمال مواجهة مشكلة تخيفك مثل تلك التي واجهتها حين سمعتك تصرخين في غرفة الكتابة على متن السفينة، ومرة ثانية حين تمكنت بذكاء ان تختبئي من الامير اليكسيس في الليلة الماضية.»

«انا... افكر بك... بك فقط.»

«لقد تأثرت كثيراً باهتمامك، لكنني لا زلت أصر على معرفة السبب.»

ورغم ادراك زيلينا ان السبب يمكن التصريح عنه ببساطة قصوى، الا أنها لم تتمكن من ذلك.

كل ما فعلته هو انها حوّلت نظرها عنه وتمتمت: «لقد كنت... لطيفاً جداً... معي.»

«ليس هذا ما أرغب سماعه بالضبط. لكن الآن، دعيني اقدم لك اقتراحي.»

فخطر لها فجأة انه قد يقترح تركها في كوبنهاغن مع

السيد هنري واتكين ويليامز وين أو ربما مع السفير البريطاني في كييف.

وهكذا تتمكن من ايجاد مرافق لها خلال عودتها الى انكلترا عوضاً عن السفر وحيدة.

قال اللورد بهدوء: «كنت افكر في انه حتى وان رافقتني على متن السفينة التي تنتظرني في الميناء، سنثير فضول الروسيين. وكما اعتقدت، وهو امر صحيح جداً، ان النساء يتصفن بالثرثرة من أي جنسية كنّ. وسيجدن بكل سهولة، ودون أدنى شك، سبباً بديهياً جداً لرحيلك المفاجيء من تزارسكوي سيلو.»

شبكت زيلينا يديها الاثنين ببعضهما البعض وبقوة حتى ان أظافرها غرست في كفيها، ثم قالت بصوت بالكاد كان يسمعه اللورد: «لم يجدر بي... ان افرض نفسي عليك. سأرجع إلى القصر... واعتذر.»

قال بحدة: «اتعتقدين انني سأسمح لك بفعل شيء كهذا؟»

جفلت زيلينا لحدته ونظرت إليه لتجده محدقاً بها بطريقة أسرتها، وقال: «لم تسمعي اقتراحي بعد.»

«ما... ما هو؟»

«السبب الوحيد المنطقي والمقبول لعودتك معي بعد أن ودعت القيصر، والطريقة الوحيدة لنسافر معاً دون أن نثير أي فضيحة، هو ان تتزوجيني.»

فشعرت زيلينا للحظات انها لم تسمع الكلمات الأخيرة، بل تخيلت انها سمعتها. ثم سألت: «اتزوجك؟»

«لقد رتبت الموضوع، سلفاً. وينتظرنا رجل الدين في مكتب السفارة المجاور لهذا المبنى.»

وإذا بزيلينا تعيش في حلم حيث هي واللورد تشارنوك شخصيتان من نسج خيالها دون أن يكون لهما أي حقيقة واقعة.

«ماذا... تقول؟... لا يمكن لك ان تعني...!»

«ما أعنيه هو انني اريد الاهتمام بك يا زيلينا. ان أحميك، واحفظك من أي شيء يخيفك كما هو حالك الآن، ولا يمكنني ان افعل ذلك الا وانت زوجتي.»

«أيعني ذلك... انك ترغب... بذلك.»

فابتسم وشعرت زيلينا وكأن القاعة قد أضيئت بألف شمعة.

«ساريك إلى أي حد أرغب بذلك، لكن بعد ان نتزوج، أما الآن، فالسفينة بالانتظار.»

وكأنها لم تصدق ما قاله، ظناً منها انها نائمة وغارقة في حلم ما. انفتح الباب ودخل ايرل دورهام إلى القاعة، وقال: «لقد بلغني انك عدت يا آنسة تايفرتون، تسرني رؤيتك ثانية!»

فحيته زيلينا، بعد ان تنكرت اته عليها ذلك. تابع الايرل قائلاً: «كل شيء جاهز. رجل الدين بالانتظار. وانمنى، آنسة تايفرتون، ان تسمحي لي ان أكون شاهدك.»

«شكراً لك.»

قال الايرل: «يستحسن لك، يا تشارنوك، أن تتقدمنا، حيث السكرتير الأول بانتظارك في الردهة ليكون الشاهد الأول.»

«اقدر لك جهودك، يا سعادة السفير.»

فابتسم اللورد تشارنوك لزيلينا مرة ثانية، وجعلتها نظرات اللورد لها، تشعر وكأنه يداعبها.

ثم خرج من الصالون، وودت لو تلحق به لتتأكد من انه لن يغير رأيه بعد ان اخبرها انهما سيتزوجان.

فمد الايرل يده وقال: «ان زوج المستقبل ينتظرك. لقد فاجانا، لكن اتمنى ان يكون سبب مرده إلى كوننا كلنا هنا بريطانيون، ونستطيع تسوية أمور أي طارىء، حتى وان كان زواجاً يتم في سرعة ليس لها مثيل.»

لكنه بدا لا ينتظر تعليقاً منها، اضافة إلى أن زيلينا لم تكن مهيأة لأي منه. فقد كان يصعب عليها أن تفكر في كلام الايرل لأن قلبها كان ينبض بقوة، وشعرت كأن العالم كله قد انقلب رأساً على عقب وانه لن يرجع إلى وضعه القويم أبداً.

إذ لا يمكن أن يكون حقيقة أمر رجل منحته قلبها قبل أن يصارحها بهذا الأمر، في الوقت الذي لم تتوقع ان يكون يفكر بها في أي حال سوى انها عبء عليه، وانها طفلة مزعجة ومملة.

فقالت في نفسها وهما يمشيان في الممر الطويل: أحبه! أحبه كثيراً... لذلك ارجو... أنه يحبني.

كان مكتب السفارة مزين بالزهور.

حتى عندما رأت زيلينا رجل الدين ينتظرهما، كانت لا تزال لا تصدق انها ستتزوج. وكأن اللورد تشارنوك كان يعرف ما يدور في ذهنها، اقترب منها ونظر إليها بحب.

قدم سكرتير السفير الخاتم للورد ليضعه في إصبعها.

وقد كان هذا الخاتم هو الخاتم المنقوش الذي كان يضعه في خنصر يده اليسرى، ومع ذلك، كان كبيراً على أصبعها، إلا أنه كان يمثل كل ما كانت تتوق له، وكل ما كانت تتخيل في أجمل أحلامها انه قد يتحقق يوماً.

فلقد تزوجت من رجل يمثل الامن والسلام، رجل احبته بقلبها وروحها.

بعد انتهاء مراسم الزواج عاد الاثنان إلى قاعة الاستقبال الصغيرة حيث كانا من قبل، وحيث كان الايرل بانتظارهما، وما ان ظهر حتى قال: «أتمنى لكما أعواماً عديدة مديدة مليئة بالسعادة!»

قال اللورد تشارنوك: «شكراً لك. سنبقى دائماً ممتنين جداً لسعادتك لتسهيلك امر زواجنا.»

قال الايرل: «لقد كان ذلك مفاجئاً. لكنني اعتقد اننا كنا عند حسن ظنك.»

فالتفت اللورد تشارنوك إلى زيلينا وقال: «مبروك يا حبيبتي.»

فقالت وقد توردت وجنتاها خجلاً: «مبروك يا...»

قال الايرل: «اقترح ان تتناولا الغداء حالما يتم توضيب امتعتكما في العربات. كذلك فقد طلبت من احد الموظفين ان يعلم ربان السفينة انكما ستكونان مستعدان للسفر بعد الظهر.»

قال اللورد تشارنوك موافقاً: «هذا ما أريده بالضبط.»

* * *

ولم تتذكر زيلينا بعد ذلك ما أكلته أو ما قيل خلال الغداء في قاعة الطعام الرائعة حيث تناولت طعام الغداء مع عدد كبير من الضيوف بعد وصولها إلى قصر فولكونسكي بثلاثة أيام.

أما الآن، فيجلس إلى الطاولة الصغيرة قرب النافذة

أربعة أشخاص، ولم تكن تعرف من قبل ان اللورد تشارنوك خفيف الظل ومرح.

حتى ان الايرل خفف من عجرفته وحاول ان يزايد على اللورد تشارنوك، فيما لم يكن في وسع السكرتير الأول سوى ان يضحك حتى انه بدا يستمتع بنفسه وكأنه ولد مدلل له كل ما أراد.

أما بالنسبة لزيلينا، فقد بدا كل شيء حالماً لكن مثيراً حتى انها ظنت نفسها متفرجة في مسرح حيث مسرحية تعرض أمامها.

بعد انتهاء الغداء صعدت إلى الطابق العلوي لترتدي قبعتها، التي كانت قد خلعتها قبل تناولها الطعام، ثم نزلت ثانية ومعها عباءة سفر لتضعها فوق ثوبها، فوجدت اللورد تشارنوك بانتظارها في الردهة.

ولأنه كان يراقبها وهي تنزل الدرج، شعرت فجأة بالخجل فهي ذاهبة معه لتبدأ حياة جديدة، وحتى هذه اللحظة لم تكن عندها رؤيا واضحة لما ستكون عليه هذه الحياة. كل ما كانت واثقة فيه هو انها طالما هي معه، فسيكون الأمر بالنسبة اليها وكأنهما في رحلة إلى السعادة.

وما ان وصلت للدرجة الأخيرة من السلم، حتى سمعت مزيجاً من الاصوات آتياً من الباب الأمامي، وما أن نظرت نحو الباب هي واللورد والسفير، حتى وجدا الامير اليكسيس يمر بالموظفين ويقف امامهم.

كان يرتدي ثياب ركوب الخيل، وأدركت زيلينا من تعابير وجهه والغبار الذي كان يغطي جزمته انه كان منطلقاً بسرعة وعصبية.

ثم قال حين اقترب من اللورد ووقف مواجهاً له بنبرة حادة: «كيف تجرؤ وتبعد أحد ضيوف القيصر؟ لقد أوفدني سيادته كي أعيد الآنسة تايفرتون فوراً للامير والأميرة فولكونسكي، حيث أودعتها عمتها!»

فشعرت زيلينا بخوف يعتريها فجأة لاعتقادها استحالة رفض طلبه.

لكن حتى قبل ان يرد اللورد تشارنوك، أدركت ان لا ضرورة لمخاوفها هذه.

إذ أن اللورد كان ينظر إلى الأمير بطريقة كانت لترعب أي رجل، ثم قال بهدوء: «يؤسفني، أيها الأمير، ان اعلمك بأن رحلتك إلى سانت بطرسبورغ غير مجدية. وانه كان يجدر بك ان تبقى في الريف وتستمتع بملاحقاتك الدنيئة.»

ولم يكن هناك من شك ان اللورد تعمد مهاجمته، والتلميح إلى أمور أخرى.

فرد الأمير بعصبية شديدة: «يجدر بك ان تتبجح خارج روسيا، يا تشارنوك، لكن بما انك في هذا البلد، عليك الخضوع لقوانينه، والقيصر يصر على عودة الآنسة تايفرتون.»

«بتحريض منك، على ما اعتقد!»

«لست مضطراً للرد عليك.»

ثم استدار الامير نحو الايرل وقال: «بصفتك السفير البريطاني، اعتقد انك تعلم بأن الآنسة تايفرتون تختبىء هنا على ما يعتبر أراضي بريطانية، وانها ان خطت خطوة واحدة خارج هذا المكان انه سيتم توقيفها بتهمة عدم الانصياع إلى ما هو أمر ملكي!»

وبما ان الايرل أطول من الامير، فقد وقف وقال بصوته الاجش، والذي كان اكثر تاثيراً من صوت الأمير لأنه أكثر وضوحاً: «أنا على علم تام، أيها الأمير، بالقوانين الروسية والامتيازات التي يتمتع بها الدبلوماسيون. انت تعلمني، وأنا أفهم ذلك، ان سيادته يطلب عودة الآنسة تايفرتون إلى تزارسكوي سيلو تحت حراستك.»

«بالضبط! والآن اخبر الآنسة تايفرتون انني هنا، وان العربة التي ستقلها ستصل بين لحظة وأخرى.»

«افترض ان لديك الأمر مكتوب خطياً؟»

«افتراضك خاطىء! وفي نفس الوقت، لا يمكنني ان أصدق انك تتحقق من كلامي وأنا رجل نبيل وضابط في الحرس الملكي.»

«لا، أنا لم أفكر بشيء كهذا! لكنك تطلب الآنسة زيلينا تايفرتون.»

«اوه! هل لي أن أكرر هذا؟ لقد تم نقلها إلى هنا في عربة تشارنوك بعد ان اقنعها بالتصرف بهذه الطريقة المشينة. وسأتاكد من أنها لا تعاني من فعلته هذه، والتي هي إهانة لمضيفها ومضيفتها.»

فقال اللورد تشارنوك بسخرية: «هذا لطف منك.» ولاحظت زيلينا ان استياء اللورد من الأمير قد بدأ يتزايد وكانت تتساءل إذا ما كان يجدر بها التدخل، عندما قال الايرل: «أرجو ان تبلغ سيادته اعتذاري العميق للطريقة الطائشة التي رحلت بها الآنسة تايفرتون عن تزارسكوي سيلو، لكنني أعلم ان عذرها سيقبل من سيادته ومن زوجته الرقيقة...»

«ستقدم الآنسة تايفرتون اعتذاراتها بنفسها. افعل كما قلت لك واعلمها بوجودي!»

«هذا أمر ولسوء الحظ لا يمكنني فعله.»

«لماذا؟ إلى أين ذهبت؟»

سأل السفير ببرود: «لم تعد الآنسة زيلينا تايفرتون موجودة. انها الآن، في الحقيقة، الليدي تشارنوك. وأعلم انك الأول الذي ترغب في تقديم التهاني لسيادة اللورد وتتمنى لكليهما السعادة.»

وبينما كان السفير يتحدث، نظر إلى حيث تقف زيلينا عند آخر درجة من السلم، وهي تمسك بالدرابزين، وعينيها متسعتين ووجهها شاحب من شدة الخوف.

وما أن شعر بوجودها حتى استدار نحوها وجفل للحظات، قبل ان يسألها بنبرة تختلف عن التي كان يسأل بها السفير: «هل تزوجت؟»

«أجل...»

ولأنها شعرت بالخوف، ودت لو تهرع إلى اللورد تشارنوك، الا انها لم تكن قادرة على الحراك، بل ظلت متسمرة في مكانها وهي تمسك بالدرابزين وكأنه يمنعها من الوقوع. فاقترب اللورد تشارنوك منها وقال: «هيا. علينا ان نذهب والا ستفوتنا الرحلة.»

فشعرت زيلينا بارتياح بمجرد ان اقترب منها.

إلا ان ذلك لم يكن سببه تعابير خيبة الأمل التي علت وجه الأمير، بل أيضاً لأن اللورد تشارنوك منحها احساساً بالامان لم يسبق لها وان شعرت به من قبل.

فودعت الايرل بينما كانا يهبطان السلم، وعندما

ركبا العربة لم تفكر في أي أمر آخر سوى انها بأمان.

بأمان من روسيا، من الأمير، من الرجال أمثال آدمسون، بمأمن من أي شيء وكل شيء قد يخيفها في المستقبل، وبمأمن من الوحدة وقلة الحيلة.

وبعد ان انطلقت العربة، كان يخالج زيلينا احساسا، رغم عدم ثقتها من ذلك، بأن الأمير لم يتحرك من مكانه، بل ظل واقفاً حيث تركاه، غير قادر على التكيف مع موقف هزم فيه، دون أن يتمكن من فعل أي شيء حيال ذلك.

فقال لها اللورد تشارنوك بعد أن أصبحا على بعد مسافة من السفارة: «آسف لحصول هذا، لكنني أعلم انك ستتمكنين من نسيان ذلك، وانك لن تجعلي ذلك يفسد يوم زفافنا.»

«هل أنا... حقاً... زوجتك؟»

«أؤكد لك ان زفافنا قانوني تماماً وفق القانون الانكليزي.»

«لقد كانت المراسم... رائعة وتماماً كما كنت اتمناها... ان تكون.»

«أنت تفاجئينني! فقد ظننت ان كل فتاة ترغب بوجود ناس كثيرون، جمع كبير من الاصدقاء، وحفل استقبال بعد ذلك.»

فضحكت زيلينا وقالت: «انني اكره هذا! فالشخص الوحيد... الذي أريده حقاً... يوم زفافي هو... انت!»

فرد مبتسماً: «هذا ما كان يجب ان اقوله أنا أولاً، لكنه لم يتسنى لنا الكثير من الوقت لنتحدث، الأمر الذي سنعوضه على متن السفينة.»

سكت للحظات ثم أضاف: «الآن، وبعد ان اكتشفت حقيقة شخصية الأمير، اعترف كم كنت شجاعة!»

«اعتقد ان الأمر الشجاع الوحيد... الذي قمت به... هو انني... هرعت... إليك.»

وصلا إلى الميناء، حيث ظهرت هـ.م.س دولفين، والعلم البريطاني والذي تاثرت كثيراً لرؤيته. وما ان صعدا إلى متن السفينة، حتى وجدا الربان بانتظارهما، قائلاً: «أهلاً بكما، سيدي اللورد. وتهانينا الخالصة مني ومن الطاقم.»

قال اللورد: «أشكرك.» ثم قدم زيلينا للربان، ليقدم هذا الأخير بعد ذلك أفراد الطاقم للورد. وأخيراً قال: «انني أضع مقصورات السفينة تحت تصرفك، سيدي اللورد. والآن، بعد إذنك، علينا ان ننطلق باقصى سرعة، والا سنقع في خطر احتمال ارتطام السفينة بقرارة رملية.»

«هذا ما لا يجب ان يحصل.»

ثم اصطحبهما الربان إلى المقصورتين اللتين تم حجزهما للورد وزيلينا. واللتين وجدتهما فخمتين، لكن ليس بقدر مقصورات الاسكورا. الا ان غرفة الجلوس كانت مفروشة بأثاث مريح ووثير بالاضافة إلى طاولة طويلة، حيث يمكن للربان ان يجلس فيها عندما يريد.

أما في غرفة النوم، فقد كان هناك سرير بأربعة قوائم، وكان قد تم توضيب صناديق ثيابها بطريقة مرتبة، ورأت رجلاً يفرغ لها احدى هذه الصناديق. فنظرت إلى اللورد تشارنوك باستغراب، فقال: «إنه هيبرت، مساعدي. وأؤكد لك انه سيكون بمثابة وصيفة ماهرة لك إلى أن ادبر لك واحدة، الأمر الذي لن يحصل قبل أن نصل إلى انكلترا.»

وقال هيبرت مبتسماً: «سأبذل كل ما يوسعني، يا سيدتي.»

ابتسمت زيلينا له بخجل، مستغربة لقبها الجديد.

ثم ذهبت مع اللورد إلى الصالون حيث أصبحا لوحدهما.

فنظرت إليه وهي تشعر بالخجل، لأنه كان لا يزال يخالجها ذلك الاحساس بالحلم؛ فيما يخص كل ما جرى معها من لحظة وصولها إلى السفارة البريطانية.

«أنت بمأمن الآن. فانت على متن سفينة بريطانية، وبعد بضع دقائق سنغادر المياه الروسية لوقت أعتقد انه سيكون طويل.»

«وأنا آمل... ذلك... أيضاً، لكن... كيف لي... أن أشكرك.»

«لدي الكثير من الاجابات على هذا السؤال. لكني اقترح اولاً ان تخلعي عباءة السفر والقبعة.»

فرفعت زيلينا يديها لتفعل ذلك.

قال بعد لحظات من النظر إليها: «أنت جميلة جداً، زيلينا.»

«أحقاً... اتعتقد ذلك؟ عندما رأيت السيدات الجميلات... الروسيات، خشيت انك... قد لا تجدني... ولا حتى مليحة.»

فأدرك انها كانت تفكر بالكونتيسة ناتاشا، لذلك ابتسم وقال: «لقد قلت في نفسي انك رائعة منذ ان وقع نظري عليك للمرة الأولى. ثم بدأ وجهك يلازمني حتى انه بدا صعباً النظر إلى أي امرأة دون رؤيتك.»

«هل هذا... صحيح؟»

«حاولت الا اصدق هذا، تماماً كما حاولت ألاّ أتقدم إليك، يا عزيزتي.»

«لقد... حاولت... الا أزعجك.»

«ربما لم يحاول أي منا ما يكفي، أو لربما كان

اصرارنا اقوى من كل الجهود التي بذلناها لنبعد عن بعضنا.»

«لم أكن أريد... الابتعاد عنك... لقد كنت فقط أخشى ان... تتركني.»

«هذا ما حاولت ان أفعله. الا أنني أدركت انني احبك كما لم أحب أي امرأة من قبل.»

وتابع بانفعال واضح: «ان هذا هو شعوري منذ اللحظة التي طلبت فيها مساعدتي. الا انني كنت واثقاً من انني لن احب فتاة إلى حد يدفعني إلى الزواج، فقلت في نفسي انك لا تعنين لي شيئاً، وانه علي ان ابقى بعيداً عنك.»

«لكنك... رغبت حقاً... بالزواج مني؟»

«لقد عاهدت نفسي على ان أخبرك إلى أي حد اريدك، الا انني لا استطيع ترجمة ذلك إلى كلمات.»

فرفعت نظرها إليه وراحت تتأمله عندئذ، ادركت انها قد اغرمت به، حتى انه استحال عليها ان تفكر بأي شخص آخر سواه، فهو أول وآخر ما تفكر فيه.

• • •

بعد مرور بعض الوقت، وبعد ان خفت سرعة سير السفينة، جلس اللورد تشارنوك مع زيلينا على اريكة كبيرة. سألها بصوت أجش: «كيف جعلتني أشعر هكذا؟ بالراحة والسعادة والفرح؟»

«أريد... أن اجعلك... سعيداً.»

«أنا سعيد، سعيد لدرجة انني لم أعد أنا، بل شخص غريب. لدرجة انني احتاج إلى التعرف إليه!»

فضحكت زيلينا وقالت: «كم هو رائع... التعرف إليك... لكنني أحبك... متيمة بك... هذا كل ما أعرفه.»

«يا غاليتي، عندما تقولين كلمات كهذه، أدرك كم أنا محظوظ لأنني حظيت بك.»

«لا، بل أنا المحظوظة. فلطالما تخيلت ما سيكون عليه الرجل الذي سأتزوجه، إلا انني لم اتخيل قط أحداً بهذه الروعة، كما أنت!»

سكتت قليلاً ثم تابعت: «لم ارغب يوماً... في الذهاب إلى روسيا. لقد كرهت... مجرد التفكير بذلك. لكن كيف كان لي ان أعلم انني... بفعلي ذلك... سوف أحظى بك؟»

«لقد فكرت في الأمر عينه، اذ لم يكن لي رغبة في مغادرة لندن.» وتذكر خلال حديثه ان سبب رفضه لتنفيذ طلب اللورد بالمرستون للذهاب إلى روسيا هو سيدة جذابة جداً يهتم لأمرها.

أما الآن فهي كالطيف حتى انه يبدو من الصعب عليه ان يتذكر ملامحها بوضوح.

وكأن زيلينا عرفت ما يفكر به، قال: «عندما تعرفني... أكثر، قد يخيب ظنك خصوصاً بعد كل السيدات الفاتنات اللواتي اغرمت بهن... في الماضي.»

«أنا لم أحب امرأة في حياتي كما احبك، واعلم انه لن يخيب ظني، يا غاليتي.»

«كيف يمكن لك... ان تتأكد؟»

«لأنني لم أغرم من قبل بفتاة شابة وبريئة.»

لفهما صمت جميل، أخذ يتأملها في اثنائه ثم أضاف: «اتعلمين، يا زوجتي الشابة الذكية، ان المعلومات التي

نقلتيها إلي والتي سمعتيها من الكونت نيسيلرود وبارون برونو هي المعلومات التي اتيت إلى روسيا لأعرفها؟ لكنني، ولك فقط اعترف انني فشلت في ذلك.»

«هل هذا... حقاً... صحيح؟ هل ساعدتك؟»

«انها مساعدة عظيمة! ولو لم احبك واتزوجك، كنت كذلك مضطراً لابعادك عن روسيا، لاحتمال ان يكتشف الأمير بالصدفة كيف تمكنت من الاختباء منه.»

«لكنك تزوجتني!»

«اجل، يا عزيزتي، واعدك انني لن أجعلك تندمين على ذلك يوماً.»

تـــمـــت

www.liilas.com